ما قبلَ الرَّحِيلِ

(إليكِ يا مريمُ)

بقلم: أحمد الحارون

إهداء:

يرحمك الله يا أبي! مازلتُ أذكر ذاكَ الأصيل وأنا بعد طفلٌ غضٌّ يتبعكَ، كنَّا في الحقلِ نرفعُ بعضَ آثار الحرثِ التي تعوق سريانَ الماءِ في المجرى، واصْفَرَّ قرصُ الشمس معلناً انتهاء النهار، وممهداً لقدوم الليل، تعجلتني عودة لا أفهمها، وكنتُ بها فرحاً، ركبتُ وراءكَ حمارنا الهزيل وسيقانكَ تحثُّه أن يقطعَ الطريق مسرعاً، وعينيكَ على قرص السماء ترقب لونه، ولسانكَ يلحُّ بكلماتٍ ويتمتم بعباراتٍ كأن الحمار يعيها، وما إن وصلنا مشارف القرية حتى أعلنتْ إحدى المآذن صيحتها الله أكبر، حينها ترجلتَ فاقداً صوابكَ، وأمسكتَ رقبة الحمار تعضُّ عليها بفيكَ وأناملك، وتردد مبسوط كده؟ فرحان كده؟ ضيعت الجماعة مني! حينها فهمتُ لماذا كانت عينك ترقب السماء؟ ووعيتُ لماذا كلَّتْ سيقانك ولم تكف عن حركتها تستنهض سرعة الدابة؟ كان في يقينك أن الصلاة هي الجماعة، ولا تُقبل بغيرها، وتركتني والحمار وحملتَ أقدامك مسرعاً لأقرب مسجدٍ لعلكَ تُعوض ما فاتك، ولسان حالك يقولُ: ليتَ الإمامَ يتأخر قليلاً، لكنَّ حظَّنا العثر تلك الليلة لم يدرك أبي الجماعة، فدخل البيتَ عابساً مقطبَ الجبين، وكأنه فقد ابنه البكر، ولم أجد درساً عمليّاً وأنا بعد صغير أفهم من خلاله الحرص على صلاة المسجد مثل عضِّ أبي حمارنا المسكين.

ويرحمكِ اللهُ أيتها الأم؛ أعترفُ أني مدينٌ لكِ بالكثير، غفر الله لكِ وجزاكِ عنَّا خيراً، لم ترَ أباها؛ وسمعتْ به فتأثرتْ كثيراً؛ كان بينها وبين الحرامِ حاجزٌ فطريٌّ تضع فيه لبنةً كل يوم فيعلو، وكان طموحها لا يُحدُّ رغم أنها لم تكمل عامها الثاني في المدرسة، انقطعت عن الدراسة ولم تنقطع عن المعرفة وقراءة ذاتها، ومن لم يجالسها حُرِم من خيرٍ كثير، كانت تُرقِّعُ الثوبَ على لمبة الجاز ليلاً؛ وتُشغلنا ببعضِ مسائل الحساب أو كتابة بعض الجمل المهموزة، فتعلمت منها قبل دخولي المدرسة أن أكتبَ اللؤلؤ يتلألأ، والاشمئزاز وأشباه هذه الكلمات، عقيدتها التي لا تلينُ أن الطفلَ يجب أن يجمع ويطرح ويحفظ جدول الضرب ويكتب إملاءً قبل المدرسة، ناهيك عن حفظ جزء عمَّ، ومعرفة بعض قصص الأنبياء.

وكانتْ نظرةٌ عاتبةٌ منها تغني عن ألف نصيحة في زماننا هذا، ويا سوء طالعي لو عضَّت على أناملها! فهذا يعني أن يومي لم تُشْرقْ شمسُه، أما قَرْصَتُها وما أدراكَ ما القرصة! فواحدة منها تكفي الحول أو أغلبه كي أنضبط؛ ليتني أربي أبنائي نصف ما ربياني صغيراً.

وأمي بسيطة حد التجاهل لمن لا يعرفها، لكن ...من اتصل منها بنسبٍ أو سببٍ يرى في بزوغها القمر، زهرة في حديقة الطبيعة في تناسقها المدهش وإن بدا غير مرئيٍّ، عليها زيٌّ يغير منها وعليها، البدر من بين عينيها يهلُّ، في كلِّ خيْطٍ من جلبابها سراجٌ، متى ابتسمت وقلَّ ما يحدث تبتسم الدنيا حولنا، وهي النور متى غاب، حسنها مستورٌ، وصفحة وجهها بيضاء كُسِرَتْ عليه زجاجة الحزن فبدا في كلِّ عينٍ سوادها وبريقها، يضمُّ ثغرها أسنانها كأنها المصابيح أُشعلت لنرى الظلام، وكأن وجنتيها نجماتٌ فوق أغصان مثمرة، تميل وتعتدل، ومتى قامت أو قعدت تبعها الجميع قياماً وقعوداً مهابة، من رآها تمنى تقبيل يدها فتمنعه خجلاً وتواضعاً، تشربُ الماء فيتحول في ثناياها رِضاباً وذرات تسبح الخالق.

قبل البداية

وتوشكُ حبَّاتُ عمري أن ينفلتَ عِقْدُها، ومازلتُ أعيشُ في وطني بنفسٍ مجدبةٍ لا تعرفُ للخصب طريقاً؛ ولا للحريةِ دربأً، وحين أتأملُ وأفكرُ في كتابِ هذا الكون الفسيح أتقازم! وحين أتوهُ في كتابِ الإنسانيةِ اللامتناهي... والذي أنا حرفٌ من حروفه أقول: ما أهونني على اللهِ ما لم أنسجمْ وأتناغمْ مع عَالَمِ الغيبِ والشهادة! ويا سعد طالعي إن بَكَتْ عليَّ يوماً سماءُ الله وأرضُه، فالرحالةَ الحقيقي مَن يُكثر رحلاته إلى دهاليز نفسِه، ويكتشفُ سراديبَ ذاتِه، ويتأملُ كراكيبَ ذكرياتِه، ويغوصُ في وهداته، ويرتحل إلى نجداته لينفيَ أشواكَها ويعانقَ أشواقَها، فسنةُ الحياة أن نذوقَ الحلوَ ساعة ونتجرعَ المرَّ أياماً، ففي بيداءِ النفس وفيافيها جميعنا له أمكنة ينزلُ إليها فيستريح، وله شرائعُ وشوارعُ تُنبتُ الخصبَ واليانعَ، وله من سنينه ونقصِ أموالِه وأيامه أيامٌ عطشى وسراباتٌ جزعة تعوي فيها ذئابُ الحرمان، وتتغول فيها غيلانُ الشهوةِ والأنا، فجميعنا حروفٌ مِن حروفِ الكون المؤتلفة المتناسقة، وبعضُ كلماتٍ، وأعظمُنا بعضُ الجمل أو ثريدُ فقراتٍ؛ يا أنا ... ما أجملَ أنْ تنكسرَ لتنتصرَ!

وحين حدَّقَتْ عيني عبر فضاءِ غرفتي ساهمة، وجالَ فكري في حياتي التي على وشكِ الرحيل،لم يقطعْ صمتَ النظرةِ إلا أنقاضُ شجرتي المتالهكة، وهالني ما عكستْ مرآتي من خريفِ العمر وحبَّاتِهِ التي ذُوِيَ بريقُها، أدركتُ كَمَّ السنين التي مرَّتْ من تجاعيدِ الوجهِ، وتضاريسِ الْمُحيا، فقد شاختْ الغصونُ، وذبلتْ الأوراقُ، واحدودبَ الظَّهرُ، وصارتْ الأقدامُ ثلاثةً، والعيونُ أربعاً، وأيقنتُ أني على قارعةِ الرحيلِ أعيشُ لحظاتِ الغروبِ الذي لا شروق بعده، فأسندتُ ظهري الْمُثْقل إلى جذعِ أريكتي التي تُشبهني، وكأني على موعدٍ لأجيبَ على أسئلةِ ذاتي التي تأخرتْ كثيراً، وباتتْ شيخوختي تضغطُ على صدري عَلّي أعوضه ما فاته قبلَ وفاته.

تذكرتُ شجرةَ حياتي وهي نبتةٌ غضة، ورُحتُ أتأمل قدرة الخالق الذي رعاها، ثمَّ مَنْ قاموا على أمرها، وجدتني جاحداً لنِعمِ ربي التي أحاطتني بعنايتها، فلم أؤدِ شكرها، ورأيتني أتعبتُ مَن حولي كثيراً، فأسألُ الله أن يسامحوني؛ وها أنا ذا أشبهُ التاجر الذي كسدتْ تجارته، أو خيَّم شبحُ الخسارةِ على صدره، أو كثر دائنوه، وليتني أستطيعُ أن أعلنَ إفلاسِي كمَن يخسر سمعته وتسقط عنه ديونه، ليتني أتوبُ توبة تحطُّ عني خطايا العمر وآثامه.

لعَمري ليتَ أمي لم تلدني... ولا أعصيكَ في ظلم الليالي

وها أنا ذا عُبيْدكَ عبد سوءٍ... ببابكَ واقفٌ يا ذا الجلالِ

فإن عاقبتَ يا رب فإني... محقٌّ بالعذابِ وبالنكالِ

وإن تعفو فعفوك أرتجيه ... ويحسنُ إنْ عفوتَ قبيحُ حالي[1]

ورحتُ أتساءلُ...عجيبٌ أنا! أجلي ينقصُ وأملي يزيد، يا أنا: احسرْ عن رأسِكَ قناعَ الغافلين؛ وأسقط من أمانيكَ خيالاتِ الآملين، ها هي رحى المنيةِ عما قليل تطحنُ؛ وقنديل الحياةِ أتتْ عليه الآفات؛ هل تجد لماضي العمر لذةً؟ هل أخرجتُ للآخرين يوماً ثمرةً حُلوة المذاق؟ هل وَهَبَتْ شجرتُكَ القديمة أبناءَ السبيلِ في قيلولةٍ بعضَ الظلّ؟ هل ستكون أفناني وأغصاني ذاتَ يومٍ عُشْباً لجائعٍ أو وكراً لطائر أو ملاذاً لتائهٍ؟ ويظلُّ السؤالُ يطاردني...مَن أنا؟ أين أنا؟ أين ثماري وأغصاني؟

أما عني فأمري إلى ربي إن شاءَ عذبني، وإن شاءَ وُهبت غفرانه، أما ثماري فقد تكونُ كلمةً قلتُها لاقتْ قلباً فاستقبلها فغيرتْ منه، أو لحظةَ ذكرٍ وافقتْ بابَ السماءِ فولجتْ، أو دعوة لي بظهر الغيبِ من أخٍ حبيبٍ أُجيبتْ، أو لعَلّي أصيبُ بعضاً مما في قلبِ ذاكَ الصحابي الذي كان يبيتُ وليس في قلبه حقدٌ لأحدٍ، فقد حاولتُ أن أعيشَ حياتي وفق قانون ربي (إن لم أحب فلا أكره)، وإن كرهتُ فلا أمقتُ شخصاً بذاته، بل فِعاله وسلوكه، فربما يأتي يومُ القيامة ويعفو عنه خالقي، وأظلُّ أنا مكبلاً في آثامي، أما أغصاني... فللهِ عندي مريمُ ثم ماجد، ثم بنات المسلمين بناتي، وأبناؤهم أبنائي، وأسألُ الله أن ينفعَ بهم دينه، وأن يكونوا بعضَ حسناتي لا بعض آثامي، لذا سأحاولُ أن أغزلَ لكِ يا مريمُ بعضَ خواطري، ولكلِّ مريمَ مثلكِ سأنسجُ ثوباً من خالصِ تجربتي مع الأيامِ والآلام، فاسمعيها وعِيها أنتِ وكلُّ المريمات، فلم يعد في جعبةِ الأيامِ إلا قليل السهام، وما بقي في القوسِ منزعٌ، ووهنتْ مِنه أوتاره، وطغت آهاتُ الليل على سُمَّاره.

نعم... قد ينصحُ الإنسانُ كلَّ الناسِ، ويُفتي في أغلب القضايا، ويُنَصِّبُ نفسه للناس إماماً، ولكن حين تكون النصيحةُ لأهله، أو القضية تمسُّ أقاربه، أو مَن يهمه أمرهم فلابد أن هذه

---

[1] - (أبو إسحاق الألبيري)

القضايا والآراء تحتاجُ منه بعداً خاصاً، وروية وحكمة قد لا يحظى بها إلا القليل، اللهمَّ اجعلنا من القليل، وأسأل الله أن ينفعنا وإياكم بها، ويغفر لنا ولكم التقصير.

وقد تأتي صفحاتي يا مريمُ مُرقعة، وكلماتي متثائبة، وحروفي ممزقة، وأفكاري غير منسقة، وعزائي أني إلى ابنتي وبناتي أتحدثُ بصفاءِ قلبٍ وراحةِ بالٍ ونيةٍ خالصةٍ، عسى أن أتطهر مِن ذنوبي بسكبِ هذه العِبارات والعَبرات، فحتماً ستتجرعين الدموع أو أتجرعها، وستجري علينا سنة الحياة وقانونُ الموتِ الأزلي؛ فلا تنزعجي يا مريم أن كتابي هذا غيرُ مترابط الأجزاء؛ فهكذا كان أبوكِ يبحثُ عن الحكمةِ ولا يعملُ بها، ونالَ من التعليمِ قسطاً ويغبطُ من لم يتعلم، وتنعَّمَ بنعمِ الحضارة التي هو عليها عَالة، وفي أعماقِ أعماقه يتمنى أن يعودَ إلى بيتِ الطين، وتنور الطينِ ولمبةِ الجاز، واللقمة الحاف والنومِ دونَ لِحافٍ.

واعلمي... حينَ أتأملُ تضاريسَ أقدامي أشفق عليها، فكمْ صاحبتني سنينَ طفولتي وبعضاً مِن شبابي وأنا أنتعلُ أديمَ الأرضِ وقتَ القيظِ وحينَ القَّرِّ، لم تتأففْ من طينِ الشتاءِ الذي تعانقه قروحي، وتكتحلُ به أظافري، وكان منتهى أملي أن أمتلكَ حذاءً يسترُ عورة قلةِ ذاتِ اليد، ولما كبرتُ كرهتُ أحذيتي الكثيرة حنيناً وشوقاً لمعاناة الطفولة!

وأمسيتُ في الماضي أعيشُ كأنما... قطعَ الحِذاءُ طريقَ أمسي عن غدي

وعشتُ وكثيرٌ من أمثالي بؤساً وفقراً أشبه بشجرةٍ تنبتُ بين رملٍ وحجرٍ، وصخرٍ وضجرٍ، وتمتصُّ غذاءَها من الجدبِ والحدبِ، وهذه الشجرةُ غالباً لا تثمر إلا ملمساً خشناً في عودِها وشوكةً تؤذي، لكنْ ... من نعمةِ الإسلامِ أنه يُدخلُ علينا الرضا فتنمو في أعماقنا شجرةُ القناعةِ ناعمةً لينةَ الجانبِ، وتثمرُ في موضعِ كلِّ شوكةٍ ثمرة، ومع كلِّ خشونةٍ تمرة، ولا أقلَّ مِن ظِلٍّ وارفٍ يُستظلُّ به، وبقايا جذعٍ يُستوقد منه! فلله الحمدُ والمنة.

ومازلتُ وسأظلُّ أتساءلُ: أين ذاكَ الطريق الذي أمشي فيه حبْواً أو عدْواً لأنتزعَ حريتي؟ ولو تراءى لي في كهوفِ الظلامِ أو خلفَ زنازين الاعتقالِ ...أفي إمكاني أن ألحقَ به قبل أن أختفي في مَبْرَكي ميتاً لا حراكَ لي؟ أم أنني سأعبر هذه الحياة أو تعبرني كسحابةِ صيفٍ على عجلٍ دون أن أتنسمَ عبقَ الحريةِ؛ ودون تذوق رضابَ الحبِّ؟

والحقيقة التي لا مِراءَ فيها....كلنا بالعيوبِ مثقوبون إلا مَن رحم، ولولا رداءُ السترِ من اللهِ لكُسِّرتْ أعناقنا ودُقَّت دَقّـاً مِن شدةِ الخجَل، وها أنا أقولُ كلامَ الصالحين وأفعلُ فِعلَ

الطالحين، إلى متى تظلُّ عداوةُ باطني مع ظاهري؟ ولله دَرُّهُ القائل: لو تكاشفتم ما تدافنتم! هل يجدي أو يكفي أو يشفعُ لنا البكاءُ؟ يا ليْتهُ! وهذا حاتمُ الأصم تلدغني سياطُ حروفه وكأنه عرفَ مكنونَ صدري:" ليس في يوم القيامة أشدُّ حسرةً من رجلٍ علَّمَ الناسَ عِلماً فعملوا به ولم يعمل هو به، وفازوا بسببه وهلك"[1]؛ ويح أمي لو كُنْتُهُ! ليتها لم تلدني إن لم يُغفرْ لي.

واعلمي يا بنية... لا قيمة يمكن أن نجنيها من التاريخ الإنساني بأكمله لولا بعض الصالحين الذين يشقون لنسعد؛ ويموتون لنحيا، ويُعتقلون لننعم بالحرية؛ لكن على النقيض ...كم من بلعام بن باعوراء في أمتنا!! باعوا دينهم وعِلمهم بثمنٍ بخسٍ دراهم أو كراسي معدودات؛ وكم من الطواغيتِ ملكوا فـ هلكوا، وإدراكُهم مسدودٌ عن الفِطنةِ بـ قُطْنةٍ، لذا أقول لأهل الحقِ: لعلَ الغمَّ ينقلبُ غَمامةً، "فصبرٌ جميل.

لكِ يا بنية وإلى من يرنو إلى معالي الأمور، ويصبو لـجناتِ عدن موطن أبينا آدم ومنازلنا الأُول، لمن تتوقُ نفسُه لـصحبةِ الأخيار، لمن ذاقَ حلاوة المناجاةِ في جوفِ الليل فسقطتْ منه دمعـةٌ في إناءِ ركعةٍ وقتَ السحرِ تُغفَرُ بها خبايا الخطايا، لمن حاكَ رُقْعةَ استغفارٍ في جوفِ الليلِ تستر بردَ الآخرة؛ إلى صاحبِ الهمة العالية، وإلى صانعةِ الرجال - إليكَ يا بني - إليكِ يا مريمُ وكلّ المريمات:

إلى مَن تتوقُ نفسه إلى التحليقِ في سماءِ الربانية، أنتَ البسمة المتلألئة على ثغر هذا الزمان، وأنتَ حاملُ مشاعل النورِ لتضيء ظلمة القلوب، لأني أحبُّكَ، وحبي لكَ في الله، ومن أجل الله، وكلُّ محبةٍ في الله تبقى على الحالين في يُسْرٍ وضِيقٍ، وكلُّ محبةٍ في سواه كـخُشُبٍ في لهبِ حريقٍ، ومن أجلِ حبنّا لكَ، هيا نرفع شعارنا: (وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر) فـهيا معاً نرتقي في منازلِ الكمالاتِ، ونستمطر الرحماتِ؛ وننالُ بها رضوانَ ربِّ البرياتِ، وصحبة الصالحين في فراديسِ الجناتِ، فجددْ نيَّتكَ، واشحذْ همَّتكَ، واركبْ معنا علَّ أحدنا ينجو بصاحبه، اخلعْ عنكَ ثيابَ الأنا، ودعْ عنكَ الكسلَ والتواني، وهيا معنا لننجو معاً، واقرأ يا هذا / هذه بضاعتي المزجاة بعيونِ قلبك قبل عيونِ رأسك، فـالقلبُ لا تبلغُ منه العظة إلا إذا

[1] - (تنبيه الغافلين (91)

دَاخلته، وتخللتْ أجزاءه، وبلغتْ سويداءه، ورُبَّ مبلَغٍ أوعى من سامعٍ؛ فلا ريبَ أننا محاسبون وسيسألنا ربنا فماذا نجيبُ؟

سنقول لربنا: كنَّا في اللهِ إخواناً على البعد، قصرنا وأذنبنا، ولم نفقدْ لحظةً حسنَ الظنِّ فيكَ، ركبنا معاً سفينة النجاةِ وشعارنا" التواصي بالحقّ والتواصي بالصبر"، وجمعتنا همومُ أمتنا ونصرةُ ديننا، واعلم يا هذا/ هذه....لا ينالُ المرءُ حلاوةَ الراحةِ فيها إلا بعد مرارةِ التعبِ!!

هي الدنياّ!!كم أرَّقتْ من أرفقتْ؛ وكم أخمدتْ من أخدمتْ، وكم فارقتْ من وافقتْ، وكم فلَّلتْ من ألَّفتْ! ويبْقى الحبُّ في الله معيناً لا ينضب، رزقنا الله وإياكم الحبَّ فيه ومن أجله، اللهمَّ وثق رابطتنا وأدمْ وُدَّها، وارْوها بفيضِ الإيمان بكَ وجميلِ التوكل عليك آمـين.

وليعلم الجميع ونفسي أعني... من نصَّبَ نفسَه للناسِ إماماً في الدينِ أو النصحِ فعليه أن يبدأ بتعليمِ نفسه في السيرةِ واللفظِ والرأي، فيكون تعليمُه بسيرته أبلغَ من تعليمه بلسانِه، وإن كان كلامُ الحكمةِ يُسعد الأسماعَ، فعملُ الحكمة يهذب القلوبَ والألبابَ، ومعلمُ نفسه ومؤدبها أحقُّ بالإجلالِ من معلمِ الناس ومؤدبهم.

في أحضانِ الطفولة

كان الحارثُ المحاسبيُّ طفلاً مع أقرانه يلعبُ أمامَ دكان تمَّار(بائع تمر)، فأرادَ التَّمارُ أن يصرفهم عن محله، فأعطاهم تمراتٍ سقطتْ من أحدِ المشترين، فانصرفَ الأطفالُ إلا المحاسبي، فإنه أخذ يرمق التَّمار من مَفْرِقِ رأسه حتى أخمص قدميه ثم انصرف عنه، فتبعه التمارُ فقال له: واللهِ لا أتركَكَ حتى تخبرني بما دارَ في خاطرك، فقال له: يا رجل...أتُؤكِل أبناءَ المسلمين السُّحتَ؟ أتؤكل أبناءَ المسلمين الحرامَ؟ لو كنتُ مكانكَ لبحثت عن صاحبِ التَّمر بحثَ الظمآن عن الماءِ البارد، ثم تركه، ففزعَ التَّمار وقال: واللهِ ما تاجرتُ في دنيا بعدها قط! هذا هو الطفل الذي يولدُ كبيراً! وتمنيتكِ هكذا يا بنية كبيرة وأنتِ طفلة.

وأكتبُ إليكِ وأنا أقرعُ بابَ الخمسين من عمري، وأسألُ الله أن تكونَ كلماتي إليكِ عوناً على نكباتِ الحياة وشهواتها وشبهاتها، فلكلِّ واحدٍ من نكباتِ الحياة نصيبٌ، وأخوفُ ما أخافه عليكم الولوج إلى بابِ الشبهاتِ، فقلَّ من سَلِمَ منها، والشبهةُ داءٌ بطيء السريانِ تجنبيه، والهوى مرضٌ سريع الانتشار والعدوى فاحذريه، وكلُّ من عرضتْ له شهوة قلَّما يعارضها، وكلنا يبصر القذى في عين أخيه وينسى الجذع في عينه إلا من رحم، ودعيني أعودُ معكِ بالزمن إلى الوراءِ قليلاً، ربما تتذكرين أولَ وقفاتي معكِ وأنتِ دون الخامسة، ساعتها استعنتُ بذاكرتي فقدحتها، واستجمعتُ خبرتي من الحياة لأبدأ معكِ أولَ معالمها، فأحضرتُ لكِ القلمَ والورقة وكتبتُ لكِ ثلاثَ كلماتٍ، وأردتُها أن تكون نُصب أعينكم وهي: (الكرامة والإيثار والتميز)، وظللتُ أشرحُ لكِ بطريقةٍ تناسبُ سِنَّكِ الغضِّ تفسيراً بسيطاً لهذه الكلمات، وحاولتُ جاهداً أن أبتعدَ عن كلماتِ الوعظِ وحِكم الأولينَ وأبوابِ الإصلاح، فكان يقيني أنكِ ستسمعينها كثيراً في مقتبلِ الحياة، واعلمي يا بنيتي أننالم نهتدِ إلى بابِ الصلاح ولم نعرفْ له طريقاً إلا نادراً، لكنه أمامكِ أنتِ ومِفتاحُه بيدك، فإذا أيقنتِ بوجوده في فطرتك التي لم تُنتكس، وصبغةِ الله فيكِ التي أحسن إيداعها في كلِّ ذاتٍ؛ فادخلي على ثقةٍ من ربكِ، وهنا فقط ينصلح حالكِ ويحْسُنُ مآلك.

مازلتُ أذكرُ قِصصَ الطفولة المصورة، وكلانا يشاهد صور الحيواناتِ ثم نفرح بها سويّاً، وحينَ عرفتِ صورة الكنجارو الحقيقية ثم وقعتْ عينُكِ على صغير الكنجارو وهو في حاضنةِ أمِّه قلتِ بصوتٍ مرتفعٍ: كنجارو نونو، كان وقعها على سمعي كقصيدةٍ محببة إلى قلبي؛ وأتذكر

أبياتَ الشعر التي كتبتُها بيدي لكِ (دع عنكَ ما قد فاتَ في زمن الصبا... واذكر ذنوبك وابكها يا مذنبُ) هل تذكرين القصيدة الزينبية يا مريم؟ وحلقاتِ تحفيظ القرآن الطويلة، كانت لحظاتُ سعادتي حين أجد إقبالكِ على القرآن والشعر؛ وأتذكر حين قرأتُ لكِ عن هاري بوتر كنتُ منتظراً إصدار نسخته بالعربية، وظللتُ أبحثُ عنها كثيراً حتى عثرتُ عليها، وكنا نجلسُ معاً نقرأ فيه وأنتِ دونَ السادسة، وأجمل القصص في (عدالة السماء)[1]؛ وهل تذكرين قصصَ ما قبل النوم؟ هل تذكرين قصة (خشبة المقترض الأمين)[2]؟ فلننظر كيف يمكن أن نربي أبناءَنا على الأمانة وردِّها من خلال سرد القصص؛ وحين تيسرت للمدين العودة إلى بلده، جاء بسرعةٍ إلى صاحب الدَّين، ومعه ألف دينار أخرى، خوفاً منه أن تكون الألف الأولى لم تصل، فبدأ يبينُ عذره وأسباب تأخره عن الموعد، فأخبره الدائنُ بأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ الذي جعله شاهده وكفيله، قد أدى عنه دينه في موعده المحدد، يرحم الله الشافعي:

تَوكلْتُ فِي رِزْقِي عَلَى اللَّهِ خَالقي... وأيقنتُ أنَّ اللهَ لا شك رازقي

وما يكُ من رزقي فليسَ يفوتني... وَلَو كَانَ فِي قَاعِ البَحَارِ الغَوامِقِ

سيأتي بِهِ اللهُ العظيمُ بفضلِهِ... ولو لم يكن مني اللسانُ بناطقِ

ففي أي شيءٍ تذهبُ النفسُ حسرة ... وَقَدْ قَسَمَ الرَّحْمَنُ رِزْقَ الْخَلاَئِقِ

وهل تذكرين قصة (يوم الوشاح[3]) وكيف نجَّا اللهُ المرأة المظلومة؟ والقصة التي أعجبتك كثيراً (الأعمى والأبرص والأقرع[4]) وأثر القصة الذي عاشَ معكِ طويلاً، ومنها عرفتِ جزاءَ المتصدق، كان يحلو لكِ سماعها؛ واعلمي يا صغيرتي أني قرأتُ في كتبِ التربية علَّها توجهني، وتوقفتُ بين الوصايا الخالدة، وكيف هَيَّأت أم معاوية بن أبي سفيان ابنها ليكونَ سيد قومه؟ وهي مِنْ أبدعُ ما قرأتُ ووقفتُ أتأمله مراراً ...كان معاوية بن أبي سفيان وهو طفلٌ يلعبُ مع أقرانه مرَّ بهم رجلٌ ليس من أهل مكة، لاحظ في معاوية الطفل نبوغاً أعجبه، فأثنى عليه قائلاً: عندما يكبر هذا الطفل سيصير سيدَ قومه؛ سمعتْ أم معاوية الثناءَ فلم يعجبها فقالت: ثكلته أمه؛ إنما أربيه ليسودَ العرب، وقد كان لها ما أرادتْ؛ تمنيتُ أن أدخل لعقل هذه المرأة

---

[1] - (محمود شيت خطاب)

[2] - (رواها البخاري في صحيحه)

[3] _ (رواه البخاري في صحيحه)

[4] - (متفق عليه) (البخاري ومسلم)

الفذة وأقرأ ما فيه لتتعلمَ منه أمهاتُ الحضارة والتقدم وعصر الفضاء والإنترنت والتربية المتفسخة، وهذا إسلامنا قبل أن يدعو بقيمه وتعاليمه إلى بِرِّ الأبناء للآباء دعا الآباءَ إلى برِّ أبنائهم صغاراً حتى يبروهم كباراً، يرحمك الله يا أويس! أفيكم أويس؟

وهذه الأعرابية التي تسكن البادية ولم تعرف يوماً مدرسة خاصة أو جامعة أمريكية؛ تتكلم في مكارم الأخلاق عند تربيتها لصغيرها؛ يُروى أنَّ الفضل بن زيد رأى مَرَّة ابنَ امرأةٍ من الأعرابِ، أُعجِبَ بمنظره، فسألها عنه، فقالت:"(إذا أتمَّ خمسَ سنوات أسلَمته إلى المؤدِّبِ فحفِظَ القرآن فتلاه، وعلَّمه الشعر فرواه، ورُغِّبَ في مآثر آبائه وأجداده، فلمَّا بلغ الحُلم حملتُه على أعناق الخيل فتمرَّس وتفرس، ولبس السلاحَ ومشى بين بيوتِ الحيِّ وأصغى إلى صوتِ الصارخ من بابِ المروءة)"[1].

هذه خريجة جامعة البادية والفطرة السليمة؛ هذه تربية أعرابية لا تملك سيرة ذاتية، ولا رأتْ يوماً قرصا مضغوطاً! الآن يتعلَّم ويعرف أسماءَ الفنَّانات ولاعبي الكرة والمصارعين وكل الأخبار غير الحسنة يحفظها عن ظهر قلب، ونطربُ له حين يتكلم عن هيفاء وميسي أو ترافل إتش، أما التخنث والسلبية والمحمول والدش والإنترنت وغرف الدردشة وتقليد الغير فلا تعليق يليق!

والنفسُ كالطفلِ إن تهملهُ شَبَّ على ... حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

والإسلامُ يعطي الحقَّ للصغير في الكلام إذا أحسنه وكان أهلاً لذلك، فقد دخل على عمر بن عبد العزيز وفدٌ من المدينة يتقدمهم غلامٌ صغيرٌ همَّ بالحديثِ باسمهم شارحاً قضيتهم، فتعجبَ من فعله عمرُ وقال له: يا بني دعْ القولَ لمن هو أسنُّ منك؛ فردَّ عليه الغلامُ: يا أمير المؤمنين المرءُ بأصغريه (قلبه ولسانه)، ولو كان الأمر بالسنِّ لكان في المسلمين من هو أحقُّ بهذا منكَ؛ فَسُرَّ من حديثه وقال له: صدقت؛ عظني يا بني! فوراء هذا الصبي أسرة قامت على تنشئته وتربيته بطريقة تجعله يتصدر المشاهد، ويتفوق ليس على أقرانه، بل على مَن هم أسن منه! فيجبُ العناية بصغارنا رهبة من عقابِ الله حين نقصر، ورغبة في ثوابِ الله حين نبذلُ الوسع والطاقة؛ ومن منا لا يتمنى بعد موته ولداً صالحاً يدعو له؟

وتوقفتُ ملياً أمام هذه العاقلة التي توصي ابنها وهو يقرع بابَ السفر وهي تودعه، فماذا قالت له؟ قالت: (أي بني، اجلس أمنحكَ وصيتي وبالله التوفيق، فإن الوصية أجدى عليكَ

---

[1] ـ (محمد راتب النابلسي ـ التربية الإيمانية)

من كثير عقلك؛ أي بني: إياكَ والنميمة فإنها تزرع الضغينة، وتفرق بين المحبين، إياكَ والتعرض للعيوبِ فتُتخذ غرضاً(أي هدفاً للنيل منكَ، وغالبُ القول أن الغرض لا يثبت حين تكثر السهام)، وإذا هززت فاهزز كريماً يلن لهزتك، ولا تهز لئيماً فإنه صخرة لا يتفجر ماؤها (أي يتصل بالكرام لا اللئام)، وإياك والجود بدينك، والبخل بمالك، ومثل لنفسك مثالاً، ما استحسنتَ من غيركَ فاعمل، وما استقبحتَ من غيرك فاجتنبْ، فالمرءُ لا يرى عيب نفسه.

وهي وصية جامعة على قلةِ كلامِها، بالغةُ الحكمة جيدةُ السَّبك، وتشملُ عظاتٍ مثمرة تخرج من رحمِ قلبِ الأم لتنير دربَ ابنها، ولقد سافرنا مراراً في حياتنا، وكانت أمهاتنا كثيراً ما توصي، لكن أشد ما لفتَ انتباهي في هذه الوصية قولها (وإياكَ والبخل بمالِكَ)؛ قلَّ من تقولها اليوم لولدها قبل سفره، لاسيما وأنه يسافر ليوسع على نفسه وغيره، وقال عليٌّ كرم الله وجهه:" البخلُ جِلبابُ المسكنةِ، وربما دخل السَّخِيُّ الجنة بسخائه"[1]، وأكثرُ أمهاتِ الحاضر يحرصن على المالِ، وربما يُتهمن بالبخل، ويحضرني في هذا المقام قولٌ لعلي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) الذي أنصف بخلَ المرأة قائلا ما معناه: ثلاثة عيبٌ في الرجل ومزية في المرأة (الجبن والكِبر والبخل)، فحين تجبن المرأة تستشعر الخطر عن بعدٍ فتفرُّ منه، وحين تتكبر تأنفُ أن تصنعَ ما يعيبها وأهلها (من باب أو تزني الحرة يا رسول الله؟) وكأن في خاطرها أن العيبَ مرتبطٌ بالإيماءِ لا الحرائر؛ وحين تكون بخيلة تحفظ مالَ زوجها.

واعلمي يا بنية أنَّ حبَّ الناسِ غاية لا تدرك، وحبَّ الخالق غاية لا تُترك، وصاحبُ الفطرة السليمة يتركُ ما لا يُدرك، ويُدرِكُ ما لا يُترك، وليس كلُّ وسيم جميلاً، وكم من جميلٍ ليس وسيماً! وكم من سعيدٍ وليس بغنيٍّ، وكم من غنيٍّ ليس سعيداً، فيكفي أن تُرضِي ربكِ وحينها ستدركين أنكِ جميلة وسعيدة ومحبوبة، فالسعادة لا تأتي من خارجِ النفس، وأغلبُ الناسِ لو أصابَ المرءُ ألف مرة وأخطأ واحدة ينسون الألفَ ويتذكرون الواحدة، وتُصوَّبُ سِهامُ العتابِ واللَّوم، لكن لو أخطأ المرءُ ألفاً وأصابَ واحدة لغفر الله الألفَ وقبل الواحدة، فما بالنا نلهث وراء البشر ونبتعد عن الله!

قال أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ لحاتم الأصم: أخبرني يا حاتم، فيم أتخلص من الناس؟

قال: يا أبا عبد الله، في ثلاثة خصال، قال: وما هي؟

قال: أن تعطيهم مالك ولا تأخذ من مالهم شيئاً، وتقضي حقوقهم ولا تستقضي منهم حقّاً،

---

[1] - (الآداب الشرعية (3/ 312)

وتحمل مكروههم، ولا تُكْرِهُ واحداً منهم على شييء؛ قال: فأطرق أحمد ينكتُ بأصبعه الأرض، ثم رفع رأسه، وقال: يا حاتم، إنها لشديدة! فقال له حاتم: وليتك تسلم! وليتك تسلم [1].

إنه لعمري انتكاس الفطرة، فحين نطيعُ ربَّ الناس يُرضِي اللهُ عنَّا الناس، ولو كنتِ مع اللهِ وخسرتِ كلَّ البشر فلعمري هذا هو المكسبُ الحقيقي، حتى الحيوان يشعر بقربكِ من الله وخوفكِ منه كما في قصة سفينة والأسد؛ ومن أرضى الناس بسخطِ الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس؛ وهو مؤقتٌ وسرعان ما يتحولون ويغدرون، فحبُّ الناس في سخط الله كسحابةِ صيفٍ عمَّا قليلٍ تقشعُ، وهذا هو الخسران المبين.

والعداوة بين الأقاربِ يا بنية صعبة وبين ذوي الرحم والنسب أصعبُ، وأصعبُ ما فيها أنها تُورَّثُ وتدوم، وربما دامتْ كحربِ بكر وتغلب، وها هي داحس والغبراء في زيِّها الجديد تشتعل في سورية، وعبس وذبيان في غيرها، لذا أحيانا يكون الانسحابُ بهدوءٍ هو المحافظة على الذاتِ، وبعضُ التنازل هو السمو حين يكون البقاءُ ثمنه خدشُ حيائكِ مع مَن لا يقدر قيمتك؛ وقال ابنُ قُتيبة: مَرَّ بي بِشرٌ بن عبد اللهِ بن أبي بكرة فقال: ما يُجلسُكَ ها هنا؟ قلتُ: خُصومةٌ بيني وبين ابنِ عمٍ لي، فقالَ: إنَّ لأبيكَ عندي يداً، وإني أريدُ أنْ أُجزيكَ بها، واللهِ ما رأيتُ شيئاً أذهبَ للدينِ ولا أنقصَ للمروءة ولا أضيعَ للذة ولا أشغلَ للقلبِ مِن الخصومةِ؛ قال ابنُ قُتيبة: فقُمتُ لأنصرفَ، فقال لي خصمي: مالك؟ قلتُ: لا أُخاصمكَ، قال: إنكَ عرفتَ أنَّ الحقَّ لِيَ؟ قلتُ: لا، ولكن أُكرمُ نفسي عن هذا، وتركتُ الخصومة، يرحمك اللهُ يا ابنَ قتيبة لو رأيتَ محاكمنا وسيلَ القضايا اليوم لحمدتَ اللهَ على باطنِ الأرضِ، ولقلتَ: أين الدين والمروءة يا معشر المسلمين؟ فقد صار شعارُ أغلبنا اصفع ولا تصفح، ولا حول ولا قوة إلا بالله

وهكذا خلق المسلم يغفر ويسامح وهو مأجور على كلِّ حالٍ، بل ربما يرى الظالمَ أولى بالعطفِ والشفقة لأنه يخسر في الدنيا ويُقتصُّ منه في الآخرة، وربما كان تسامحك سببَ عودته لرشده وإصلاح حاله، فهذا صحابيٌّ يتصدق بعرضه، وآخر يُخْرِجُ متاعه من بيته ويجلس بالطريق لأن جاره بالغ في إيذائه، فيدله الرسول ﷺ على العلاج الناجع، وذاك يهدي من ذكره بسوءٍ بواكير الرطبِ؛ وروى عمار بن ياسر ﷺ أن رسول الله ﷺ مرَّ بشاةٍ

([1]) – وفيات الأعيان 27/2.

ميتةٍ قد ألقاها أهلها فقال:" والذي نفسي بيده إنَّ الدنيا أهونُ على اللهِ من هذه على أَهلها"، فما بالنا وراءها نلهث!

ومن الناس من تعوَّد السكون والهدوء، وهو المعبر عنه بالذَّلول والهيِّن والليِّن، ومنهم من تعود الطيش والانزعاج، فيحتدُّ لـ أدنى ما يطرقه، ككلبٍ يسمع صوتًا فينبح قبل أن يعرف ما هو! ولا أرى الطواغيت وطلاب الدنيا وسارقي الأوطان ومن دار في فلكهم إلا ممن تعود الطيش والظلم، وربما ظنَّ باعتياده هذا السلوك أنه يحسنُ صنعاً، وهو من الأخسرين أعمالاً إلا مَن تابَ وحسنت توبته وقبلها ربُّ العالمين، فبعضُ الناس قد يختصمُ بعضَ الناس يوم القيامة، فما بالنا بمن يختصم وطناً أو أمة!

وليعلم الجميعُ وأنتِ يا مريم... أنَّ المسلمَ يجب أن يحقق في نفسه وذاته التوازن بين محاورَ ثلاثٍ للتربية وهي: الإيماني (التعبدي)، والسلوكي (الأخلاقي)، ويمزج هذا مع ذاك في (تربية حركية)، وليكن على حذرٍ من أن يطغى محورٌ على آخر، ولكلِّ محورٍ بداية ومستويات ونهاية، وقد تتيسر البداياتُ للكثير، لكن المتساقطين على الطريق لا حصر لهم؛ نعم لكلِّ شخصٍ طاقته وقدرته، لكن على قدرِ نياتنا نُؤجر، وقد لا نبلغ خطَّ النهاياتِ، ولكن يثيبنا الله من فضله أجر مَن وصل، "واعبد ربك حتى يأتيك اليقين"، قيل في اليقين: هو الموت، والمؤمنُ يعيش في الدنيا كمن سيفرغُ من نهاره ثم يقبلُ على حسابه ليلاً، لا يأبه بما فاته، ولا يهتمُ إلا بآفاته، بل يقلقه ما سيلقى الله به، وما سيجده في كتابه منشورا؛ وقيل: "إن البدنَ إذا خلا عن الروح كان ميِّتاً، وكذلك حال الإنسانِ إذا خلا عن الاستقامة واعوج كان فاسداً"[1].

لقد كانت طفولتك رائعة بالنسبة لي يا مريمُ، ويا ليتها تكون بالنسبة لكِ، والعجيب أنها طالتْ معكِ كثيراً وكأنكِ لا تريدين مغادرتها، فكنتُ في قربك يا مريمُ أشفق على مَن سافر أبوه في طلب الرزق، وخاصمتُ السفر رغم ضيق ذات اليد لأجلكِ، فقد أيقنتُ أن حرمانَ الطفلة من حنان أبيها لا يعوضه العالم بأسره، واحتياج الزوجة في لحظةٍ تطيشُ معه كلُّ أوراقِ النقود، لذا آثرتُ البقاءَ، وحاولتُ جاهداً أن أغتني بكم، وأسعد معكم، فقمة السعادة في

[1] - (بصائر ذوي التمييز (4/ 313)

العطاء وليس الأخذ، وآمنتُ دوماً بأن عطاءَ الله عطاء، ومنعَ الله عطاء، فلله الحمد والمنة، وقد قال الشاعر[1]:

لكلِّ ضيقٍ من الأمور سعه ... والليّل والصبح لا بقاء معه

لا تحقرنَّ الوضيعَ علَّك أن ... تلقاه يوماً والدهرُ قد رفعه

قد يجمع المالَ غيرُ آكله ... ويأكلُ المالَ غيرُ من جمعه

قد يقطع الثوب غير لابسه ... ويلبس الثوب غير من قطعه

قد يرفع البيت غير ساكنه ... ويسكن البيت غير من رفعه

فارض من الله ما أتاكَ به ... من قرَّ عيناً بعيشه نفعه

---

[1] - ابن قريع السعدي

المراهقة

قال شابٌ يافعٌ لشيخه: رغباتي كثيرة ولا أستطيعُ منعَ نفسي من النظر للفتياتِ في السوق فماذا أفعل؟ أعطاه الشيخُ كوباً ممتلئاً لحافته من الحليبِ وأوصاه أن يوصله لجهةٍ معينة ويمرَّ من خلالها بالسوق، ومحذراً إياه أن ينسكبَ، واستدعي واحداً من تلامذته ليرافقه في دربه، ويضربه أمام الناس إذا انسكبَ من الكوب قطرة، وبالفعل وصل الشابُ إلى وجهته وكوب الحليب لم ينسكبْ منه دون القطرة، ولما سأله الشيخ: كم مشهداً مثيراً رأيت؟ وحدثنا عن الفتياتِ اللاتي نظرت إليهن، أجاب الفتى: يا شيخي كنتُ خائفاً من الضرب أمام الناس إذا انسكب الحليبُ، فلم أشاهد الفتياتِ ولم يلفتن نظري؛ فقال الشيخ: وهذا حال المؤمن وخوفه من الله وخزيه يوم القيامة يمنعه من النظر إلى ما لا يحل؛ أيها الرجال: عفوا تعف نساؤكم، أيها النساء: كلُّ امرأةٍ سافرة متبرجة إنما هي معتدية على عفةِ كلِّ شابٍ، أو هي الخرقاء التي تترك اللحمَ للثعالب، أو هي البلهاء التي تكتب على خزينة نفائسها: انتبهوا أيها اللصوص هنا يوجد الذهب، أيها الطاغية.. أيها القاتل .. أيها الظالم... أما يمنعك خوفك من الله وخزيك أمام الأشهاد من أن ترعوي؟

هل تذكرين ذلك اليوم يا مريم؟ حين جئتُ من عملي ظهراً فوجدتكِ نائمة في سريركِ، مختفية تحت دِثاركِ على غير عادتك، سألتُ أمكِ المتعبة في تجهيز طعامنا هل مريم مريضة؟ همستْ لي بصوتٍ لم أحدد فيه فرحاً ولا ترحاً، لكنَّ القلقَ كان يغتاله... جاءها ما يعتري البنات ليعلن أنهن صرن كبيراتٍ، هرعتُ إليكِ وجلستُ على حافة سريركِ هامساً باسمكِ، رفعتِ غطاءَكِ في استحياءٍ مدعيةً نوماً ضربَ الخصامُ بينه وبين مآقيكِ حاجزاً، فوضعتُ قبلة على جبينكِ وقلتُ لكِ: لا تخافي بنيتي، هذا يوم مولدك الحقيقي، هذه لحظة يبدعها خالقُ السماء وربُّ الأرض، ونقلة في ذاتِ الأنثى من طورِ طفولتها إلى مرحلةٍ أنضج، الآن يبدأ تكليفك الحقيقي يا مريم؛ لحظة نشر صفحات كتابك، ساعة فيها يبدأ صرير أقلام الملائكة لتدون لكِ أو عليكِ، وما كان يُسمح لكِ من قبل راح وطاش، وعبثُ الأطفال ولهوهن مضى إلى حيث لا رجعة، الآن يا بنيتي أنتِ أنثى يغار الله عليها؛ وعليكِ من الآن فصاعدا أن تثبتي لذاتك في كل فِعالكِ أنكِ مسلمة ملتزمة، وتضربي المثل في العفة والحياء، وتذكري أني سميتك مريم... ولكِ يا مريمُ في مريمَ الأسوة والقدوة، حين جاءها المخاضُ وهي الشريفة

العفيفة الطاهرة، تعرفين ماذا تمنت؟ "فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً"[1]، تتمنى الموتَ حتى لا تُتهم بعفتها وطهارتها، وهكذا تكون كلُّ شريفة طاهرة عفيفة، فحياتها مقرونة بعفتها، وإلا فباطنُ الأرض أفضل لها، ولابد أن يستقر هذا المعنى في نفس ووجدان وخلجات المرأة السوية المتوازنة، بل ويتعداه إلى لسان حالها ومقالها وسلوكها؛ ويقولُ الشاعر[2]:

ما إن دعاني الهوى لفاحشةٍ ... إلا نهاني الحياءُ والكرمُ

فلا إلى فاحشٍ مددتُ يدي ... ولا مشتْ بي لزلةٍ قدمُ

وأتذكر في أول عهد الصبا ومرحلة المراهقة المبكرة أنى قرأتُ:كونكَ تُحِبُّ فهذا لا يعني شيئاً، وكونك تُحَبُّ فهذا يعني بعض الشيء، وكونك تُحَبُّ ممن تُحِبُّ فهذا يعني كل شيء، وأول ما يبحثُ المرءُ بعد حاجاتِ المأكل والملبس والأمان...حاجات تحقيق الذات، ومن تحقيق الذات أن يشعر الإنسان أنه محبوبٌ، وهناك من يهتم بأمره، وتقفز في ذهنه فكرة الحبِّ من الطرف الأخر مع بداية المراهقة، (لكن بنسبٍ مختلفة) ولأسباب كثيرة كما أفاض مَن قبلي، والفراغ وغياب سمو الهدف في حياتنا وغيابُ الحبِّ الأسرى ومشاعر الدفء والحوار يُعجِل من ظهور تلك المشكلات، و يجعلنا أسرى لأفكار غير سوية، كما قالوا: النفس إن لم تشغلها في الطاعة شغلتك في المعصية، وهناك فارقٌ بين نزواتِ الشباب الأولى والعشق، فالشبابُ يعنى الخيال الخصب، والدفع غير المنطقي للأفكار وعدم منطقة الأمور، وإعلامنا يهدم أضعاف ما نبني؛ فما أسهل الهدم وأشق البناء! لاسيما بناء العقول والأفكار.

وقيل:" المقدمات غير الطبيعية تؤدي دائماً إلى نتائج غير طبيعية"، فغير الطبيعي الآن أصبح أضعاف الأضعاف عن ذي قبل، لكن تبقى القدوة والوازع الديني والصحبة الطيبة وحسن المراقبة والتوجيه مضاداتٍ حيوية لكلِّ الظواهر السلبية، وأهم من ذلك كله الاحتواء العاطفي من قبل الأسرة والحوار، وحين نوفرُ الأمانَ النفسي في البيتِ تخرجُ منه كلُّ الطاقات السلبية، فالمكانُ يصنعُ المشاعرَ وينميها، وترتيبُ البيتِ ونظافته وجماله مهما بدتْ أشياؤه بسيطة تُعَدُّ هندسة المنزل التي سرعان ما ترتدُّ إلينا فتهندس مشاعرنا، فلا مكان أحب إلى المرءِ من بيته

---

[1] - (مريم: 23)

[2] - المبرد

حين يحبُّه، ولا أبغض منه حين يبغضه؛ أما هندسة الوطن فلنصبر حتى نعثرَ على الوطنِ؛ وأسركم قولاً: أطفالنا يعلمون ويعرفون أكثر مما نتوقع بكثير، حين كنا صغاراً كان ساندويتش الطعمية يُعدُّ ترفا ومن نافلةِ الأكل، أما الآن فحدث ولا حرج، ونشتكي قلة ذات اليد، لكن نسأل الله السلامة وأن نقوم بالرسالة معهم على خير وجهٍ، ربما ساندويتش الماء يكفي، فالغصة لا تغادر الحلق، فصاعقة ما أسمع تفيضُ وتزيد.

واعلمي يا بنية أنه... كتبَ مَن كتبَ لمحو الفساد والإفساد، ودعا مَن دعا إلى تقويم السلوك والأخلاق، وهتفَ من هتفَ لضبط الشهواتِ والشبهات وجَعْلِها في إطارها الصحيح، فكلَّتْ الألسنة، وبُحَّ الصوتُ وجفَّ المدادُ، وما صنعنا إلا الشيء اليسير، ولم نُزلْ من المنكر إلا النذر القليل، بل يزدادُ العجبُ من زيادة المنكرات وانتشار المفسدات، وكثرة آلاته، وتعدد وسائله، وكأن الصراعَ لا تنتهي حلقاته، وإبليس وجنده يزيد أتباعُهم كل آنٍ، وأخوفُ ما أخافه حين أتلو القرآن:" وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين"؛ فالذي يؤمن من الناسِ أقلُّهم، وهذا حسب المدلول الالتزامي للكلام، وقوله: "وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون"، يا الله! حتى القلة المؤمنة لا ينجو منها إلا أقلها! نسأل الله أن نكون وإياكم من القليل.

وما أشبه ذاكرة الإنسانِ بذاكرة السمكِ! فرغم مناهج السماء، ورغم رسالات الأنبياء، ورغم قصص الأولين والآخرين في جمال العفة والتعفف، لكن القليل من يسمع، وأقل القليل من يطابق سمعُه سلوكَه، واليقينُ الثابتُ أن غاية كلِّ ذئبٍ من كلِّ نعجةٍ لحمها، وما يريده الرجلُ الذئبُ من كلِّ أنثى أعزُّ عليها من اللحمِ والعظمِ وما تلاهما؛ وشرٌّ عليها من الموتِ، فتاجُ المرأة وفخرها حياؤها الذي به تشرف، وحين تُفجع المرأة في شرفها أشد عليها وعلى ذويها من موتها ألف مرةٍ؛ ربما هو الرجل مَن يخطو خطواته الأولى في طريق الإثم، ونادراً ما تبدأ المرأة فتح باب الرزيلة، لكنها أحياناً تترك البابَ مشرعاً وكأنها تخلع بعض ستار العفة والحياء بلينِ الحديث والجانبِ، وميوعة النظرة، وخلاعة الإيماءة؛ والخضوع في القول، ومتى خضعتِ في القول يطمع مَن في قلبه مرضٌ، فكأنها قالتْ لِلِّصِّ: هذه هي النفائس فعليكَ بها.

ورأس مال الأنثى خُلقها وأدبها، وكلُّ الرجال يتكلمون معها رقيق الكلام، ويودونها ودَّ الصديق الناصح، وهذا لعمري أشبه بالثعلب الذي برز في ثيابِ الواعظين، وكأنه يعلن أنه

تاب وأناب عن اصطيادِ فِراخِهِ ودجاجِهِ، لكن وآهٍ من لكن وما يعقبها... لو سمعتِ أحاديثَ الشبابِ غيرِ الملتزم في خلواتهم، وما يزيدون وينهشون في أعراضِ المسلماتِ دون خجلٍ يشيبُ له الولدان، فكلُّ كلمةٍ ناعمةٍ وكلُّ فعلٍ يبدو منه العفة كلاهما تمهيدٌ لما يريد، وغاية كلِّ ذئبٍ من كلِّ حملٍ لحمها، فإذا انتهى مِن هذه بحث عن تلك، وأنت الخاسرة على كلِّ حالٍ؛ فالحذار الحذار! واعلمي يا بنية أن الرجل والمرأة قد يشتركان في معصيةٍ لدقائقَ، وسرعان ما ينسى هو، وتظلين أنتِ تتجرعين غصةَ المعصية وألمَ عدم تقديرك لذاتكِ، ولحظة سقوطِ البنتِ في عين الرجل تتحولُ إلى عملةٍ زائفةٍ لا يقبلها الناسُ، ويزهدها من كان يتمناها، ويبحثُ عن أخرى تمتنع عنه، ولا نعيم في نعيمٍ يعقبه ألم، ولا ألم في ألمٍ يعقبه نعيم، حتى مجتمعنا الظالم يغفر للفتى ذلَّته ويقول: ضَالٌ سيهتدي، أو طائشٌ سيفيق، لكنه محال أن يسامحَ الفتاة ويغفر لها، وتظلُّ الوصمة في جبينها وجبين من تنجب أبد الدهر، والهمُّ فالقٌ كبدها لمعصيةِ دقائق، فكهذا طبع النفس التي تميل إلى الهوى؛ كلَّ شهوةٍ تستدعي أختها إلى أن يهلكَ الإنسانُ؛ وكان سفيانُ الثوريُ كثيراً يتمثَّلُ بهذين البيتين للإمام علي ﷺ:

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها.... من الحرام ويبقى الوزر والعارُ
تبقى عواقب سوءٍ في مغبتها.... لا خير في لذةٍ من بعدها النارُ

فالحذرَ الحذرَ من كلِّ ذئبٍ! ولو أنكِ زويتِ بصركِ عمن يطاردك، وأبنتِ له الشدةَ والحزمَ لانصرف عنكِ، وإن تمادى في وقاحته فلابد أن ينالَ من لسانك ويدك، حتى لو اضطركِ هذا إلى نزعِ حذائكِ وبعض حيائك، فإنْ فعلتِ هذا أو بعضاً منه ستجدين أغلبَ من في الشارعِ لكِ عوناً عليه، فإن كان في نيته بعضُ الصلاح لعرف قيمتك، وثمَّنَ عِفتكِ، وجاءكِ يطرق بابكِ متأسفاً يطلب الوصلَ بالحلال وأمام الجميع.

والبنتُ مهما بلغت من العلم والمجد والشهرة والجاهِ فغايتها ومنتهى أملها في زوجٍ يتقي الله فيها، ويأخذ بيدها إلى الجنةِ، وبيتٍ تربي فيه أولادها، فتحقق الصلاحَ كزوجةٍ، والتوقير والفضيلة كأم وقائمةٍ على بيتها، فهذه مملكتها الحقيقية، ومن صميم خِلقتها، ونجاحُ أولادها امتدادٌ لنجاحِها، ولسانُ ذكرٍ لها في الآخرين، فلا الشهرة الخادعة ولا المجد الزائل ولا مال الدنيا يساوي نظرة سعادة في عيون طفلٍ لأمه، ولا لحظة دافئة في أحضانها، والتي تتكبر عن الزواج في مقتبل العمر بدعوى أنها لا تحتاج لرجل؛ أو لا تريد أن تتحملَ أعباءَ أطفالٍ، وهمومَ

حمل ورضاعة تندم أشد الندم حين يفوتها قطار الزواج، وأغلبهن تأخذهن العزة بالإثم، فلا يظهرن الندمَ أمام العامة، أما لسان حالهم أمام مرآتهم الأنين المكبوت، والدمع المسكوب، والحسرة التي لا تنفع؛ واعملي أنَّ مَن حارب سنن الفطرة فهو مغلوبٌ.

وسيظلُّ سوقُ الزواج يا بنية عبر الأجيالِ كسوق الفاكهة، نظرةُ من يشتري تختلف عن نظرة من يبيعُ، ونظرة من يملك السعر تختلفُ عن نظرة من يشتهي ولا يملك، وبعضُ الفاكهة الرخيصة يكثر عليها عوامُ الناس، لكن الجيدة وعالية القيمة لا يقفُ أمامها إلا من يقدر ثمنها، وليس كلُّ من يدخل السوق حتماً سيشتري، وكلما ندرت الفاكهة أو جاءت في غير أوانها زاد سعرها، وكذلك البنتُ حين تتحلى بمكارم الأخلاق وتتعفف لا يطرق بابها إلا من يقدر قيمتها ويثمِّنُها، ولولا بعضُ الفاسدات وربات الهوى ما كسدتْ سوق الزواج ولا بارت تجارته، وكلُّ شريفةٍ حرةٍ أبيةٍ عليها أن تدفع أيَّ فجور تراه وتحارب التعري والسفور حسب قدرتها، فالمرأة أعرفُ بلسان وحال ولباس وحاجة المرأة، وكلُّ جسمٍ تعرى سيحاسبُ الله عنه المجتمع بأسره، لأنه يشبه الفاكهة المكشوفة في قيظ الصيف، يتجمع حولها الذبابُ الذي لا ينفع معه هشٌّ ولا نشٌّ ولا رشُّ الماء، وكلُّ عانسٍ أو أرملةٍ أو يتيمٍ لا يجد من يحنو عليه شرفٌ مبتذلٌ، وداءٌ عضالٌ ينخرُ في جسد هذه الأمة.

والعفة التصقتْ بالمرأة فلا تُعرفُ إلا بها، وأحيانا يحشر الرجلُ نفسه في هذا المجال تقليداً ليس إلا، فلو زَلَّ وجد ألفَ مدافعٍ ومُتهماً واحداً، لكن المرأة حين تزلُّ تجد ألفَ متهمٍ ولا مدافع عنها غيرها، نعم... هي التي تفقد من رصيدها أغلبه حين الخطأ، ويتغير تكوينها النفسي في لحظة ضعفٍ، ولذا كان شرُّ عيوب المرأة ما اتصل بعفتها بسببٍ؛ وكم مِن محاسنَ للنساء تغنى بها شعراءُ! وكم من مزايا اختصتْ بها الحبيبة لدى حبيبها! والحقَّ أقول: أن هذا مرده إلى خيالِ من تغنى، وإلى أوهامِ من هامَ، وحقيقته في العين الناظرة التي ترى، فأغلبنا يرى الحبيبة ملائكية الطبع بعين المحبِّ، ويراها الآخرُ من عوامِ الناس.

ولو نظر كلُّ الرجالِ إلى النساءِ على حقيقتهم لما فسد رجلٌ ولا شقيتْ امرأةٌ ولا هامَ شاعرٌ، وأغنى النساءِ من ملكتْ عفتها وإن فقدت باقي الأشياء، وأفقرهن من فقدت عفتها وإن ملكتْ الدنيا بأسرها؛ وفي غير الحلالِ نتخفى ونتحايل؛ وكثيراً ما نكذب حتى لا يُفْضَحُ أمرنا، لكن حين يكون الحلالُ وطرقُ البيوتِ من أبوابها تغمر الفرحة الجميع، وتتآلف القلوب

قبل الأبدان، وفي لحظاتٍ وبضع كلماتٍ قليلة يصير ما كان حراماً حلالاً، وما كان حلالاً حراماً، لحظات زوجتك ابنتي وموكلتي ... يا الله! لو تعلمون قيمتها ومَن يشهدها؟ إنها لحظاتٌ مباركة تشهدها ملائكة السماء والأرض، وبها الميثاق الغليظ. ....!

مراقبة الله

قيل أن عيسى عليه السلام خرج يستسقي، فلما ضجر قال لهم: من أصابَ منكم ذنباً فليرجع، فرجعوا كلُّهم إلا واحداً، فقالَ له عيسى عليه السلام: أما لكَ من ذنبٍ؟ فقال: واللهِ ما علمتُ من شيءٍ غير أني كنتُ ذاتَ يومٍ أصلي فمرَّتْ بي امرأةٌ فنظرتُ إليها بعيني هذه، فلما جاوزتني أدخلتُ أَصْبُعِي في عيني فانتزعتها وتبعتُ المرأةَ بها، فقال له عيسى عليه السلام: فادعُ اللهَ حتى أُؤَمنَ على دعائكَ، فدعا فتجلَّلتِ السماءُ سحاباً، ثم صبَّتْ، فسُقوا)[1]؛ وهذا عاقبةَ بن يزيد القاضي كان يلي القضاء ببغداد للمهدي، فجاء في بعض الأيام وقت الظهر للمهدي وهو خالٍ، فاستأذن عليه، فلما دخل استأذنه فيمن يُسَلِّمَ إليه القِمَطْر(ما تُصانُ فيه الكتب) الذي فيه قضايا مجلس الحكم، واستعفاه من القضاء، وطلب منه أن يُقيله من ولايته؛ فظنَّ المهديُّ أن بعضَ الولاةِ قد عارضه في حُكْمِه، فقال في ذلك: إنه إن كان قد عارضكَ أحدٌ ننكر عليه، فقال القاضي: لم يكن شيءٌ من ذلك؛ قال: فما سببُ استعفائك من القضاء؟ قال: يا أمير المؤمنين... تقدم لي خَصمان منذ شهر في قضية شائكة، وكلٌّ يدعي بينةً وشهوداً ويُدلي بحججٍ تحتاجُ إلى تأمُّلٍ وتلبُّثٍ، فرددتُ الخصومَ رجاء أن يصطلحوا وأن يظهر الفصلُ بينهما، فسمع أحدهما أني أحبُّ الرُّطبَ، فعمد في وقتنا هذا وهو أول أوقات الرُّطبِ، فجمع رُطباً لا يتهيأ الآن جمعُ مِثله لأمير المؤمنين، وما رأيتُ أحسن منه، ورشا بوَّابي بدراهمَ على أن يُدخِلَ عليَّ الطبقَ؛ فلما أدخله عليَّ أنكرتُ ذلك، وطردتُ بوابي، وأمرتُ بردِّ الطبق، فرُدَّ عليه؛ فلما كان اليوم تقدم الخصمان إليَّ فما تساويا في عيني ولا في قلبي، فهذا ما حصل يا أمير المؤمنين معي، فكيف يكون حالي لو قبلتَ الهدية؟ ولا آمنُ أن تقعَ عليَّ حِيلةٌ في ديني وقد فسد الناس، فأقلني يا أمير المؤمنين أقالكَ الله، واعفني عفا الله عنك.

يرحمك الله يا عاقبة! عففتَ وطلبتَ إقالتك لأن الخصمين لم يتساويا في عينيك وقلبك، وتخشى على دينك من أن يحتالَ عليك الناسُ، وتقول: قد فسد الناس، فما بَالُكَ لو رأيتَ بأمِّ عينك قضاة اليوم! لو رأيتَ لهالكَ كيف وصلوا لمنصة القضاء إلا من رحم، ولو أدركتَ لشاب شعرك وقُلتَ أن القيامة قد قامت والناس بعد أحياء.

---

[1] - (إحياء علوم الدين 1/ 308)

فالتقوى سببٌ لغضِّ البصرِ وتحصينِ الفرج واستحضار عظمة الله ومراقبته في السر والعلن، وقال الكرماني:" مَنْ عَمَّرَ ظاهرهُ بإتباعِ السنة، وباطنه بدوامِ المراقبة، وغضَّ بصره عن المحارمِ، وكفَّ نفسه عن الشهواتِ وأكلَ الحلالَ لم تُخطئ له فراسةٌ"[1]، وقال بعضُ السلفِ: من حَفِظَ بصره أورثه اللهُ نوراً في بصيرته.

وتأتي قوانينُ الخِلقةِ فتضعُ البشرة(الجِلدَ) غطاءً على ما خلفها من أبيض وأسود، وكلاهما من نسيجِ الطينِ، ولو أنَّ كلَّ الوجوهِ لدى النساءِ كانتْ قبيحة وعلى أبشعِ الصورِ دمامة لكانتْ كلُّ النساءِ جميلاتٍ في عيونِ الرجل، فالطبعُ الإنساني يألفُ الصورة الواحدة، ويبحثُ فيها عن الجمالِ، والحقيقة العارية أن الجميلاتِ والقبيحاتِ كلهن سواءٌ في أنهن نساءُ، ولا تُقصِّرُ هذه عن تلك في وظيفتها الإنسانية، لكن الشقاءَ يبتلي الرجلَ بالمرأةِ، ويختبرُ المرأةَ بالرجلِ، فقال عليه الصلاة والسلام:" ما تركتُ بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء"[2]، ولو سما العقلُ الإنساني إلى غايةِ الخلقِ ومُراده لأدركَ أن السوداء مهيأةٌ في نفسها لمعالي الأخلاق، كما أن الجميلة مهيأةٌ لتردي الخلق، فكهذا النفسُ صالحة وطالحة، وليس لبياضِ البشرةِ أو سوداها دخلٌ في هذا، لكن يبقى العيبُ في نفسِ الرائي الذي سَخِطَ من القبحِ واعتبره فساداً فنفر منه، وغالى في الجمالِ فأحاله فساداً من نوعٍ آخر والتصق به، ويا للعجب!!! أكثرنا يتعلقُ باللحمِ والدمِ، وكلاهما مثلُ اللونِ على الجدار، فسرعان ما يتغيران من شمسٍ ومطرٍ وطقوسٍ وتعاريج الأيامِ، وينسى جمالَ الروحِ الذي لا يفنى، فأقبلي يا بنية على اللهِ تجدي مِن إقبالِ اللهِ عليكَ عجباً.

وكان أهل الجاهليَّة يتحرَّجون مِن بعض القبائح بدافع الحَيَاء، فها هو هرقل يسأل أبا سفيان عن رسول الله ﷺ فيقول أبو سفيان: (واللهِ لولا الحَيَاء مِن أن يعرفوا عني كذبًا لكذبت عنه)، فمنعه الحَيَاء من الافتراء؛ والحياء كله خيرٌ، ومهما توارى المرءُ خلف زِيّه ولباسه أو لحيةٍ طويلة أو عذب كلامه فإنه لا محالة مفضوحٌ إذا ما كانت أخلاقه ساقطةً أو يبطنُ الشرَّ ويظهر خلافه، ولا جدوى للنقابِ والفكر سافر، فمتردي الخلق أشبه بالعفنِ في الثمرة الناضجة، مهما تحاول إخفاءه ورائحته يأبى إلا أن يظهر إلى أن يواريه الثرى، وكان الرَّبيع بن

[1] - (ذكره ابن القيم في روضة المحبين)

[2] - رواه البخاري في صحيحِهِ

خُثَيم مِن شدَّة غضِّهِ لبصره وإطراقه يَظُنُّ بعض النَّاس أنَّه أعمى، وكان يختلف إلى منزل ابن مسعود عشرين سنة، فإذا رأته جاريته قالتْ لابن مسعود: صديقك الأعمى قد جاء؛ فيضحك ابن مسعود مِن قولها، وكان إذا دقَّ الباب تخرج الجارية إليه فتراه مطرقاً غاضّاً بصره، فـكلُّ نظرةٍ محرمة هي من خائنة الأعين؛ وقال ابن شبرمة: عجبتُ من الناسِ يحتمون من الطعامِ مخافة الداءِ، ولا يحتمون من الذنوبِ مخافة النار! ويقول الشاعر[1]:

يَعِيش المرْءُ ما استحيَ بِخَيرٍ... ويبقى العودُ ما بقيَ اللحاءُ

فلا واللهِ ما في العيشِ خيرٌ... ولا الدُّنيا إذا ذَهبَ الحَياءُ

والنفوسُ بما جُبلت عليه من ميلٍ للشهواتِ مثل الوقود القابل للاشتعال، وما أُودع فيها من غرائز تميل للهوى حيث مالَ مثل البارود، فكلَّما غضَّت الطرفَ وبعدت عن مواطن الإثارة ظلَّت ساكنة لا يُخشى خطرها، لكن حين تقترب من مواطن الفتنة يشتعل فتيلها وتتحرك نوازعها، وتهيج كوامنها، وبدت شرورها، قال وكيعٌ رحمه الله: "خرجنا مع سفيان الثوري في يوم عيدٍ فقال: أول ما نبدأ به في يومنا غضُّ أبصارنا"[2]، وكما قالت أمنا أم سلمى رضي الله عنها: "حُماديات النساءِ غضُّ البصر"، ويقول الشاعر[3]:

وأغضُّ طرفي ما بدت لي جارتي .... حتى يواري جارتي مأواها

إني امرؤٌ سمح الخليقة ماجدٌ .... لا أتبعُ النفسَ اللجوجَ هواها

وهذه فاطمة بنت النبي ﷺ لما رأت جنائز النساء تُحمَلُ الواحدة منهن على النعش مكشوفاً وتُغطَى بثوبٍ، فيُعرفُ رأسُها وصدرُها وحجمُها، فاستقبحتْ ذلك، فقالت لأسماء بنت عميس: إني أستقبح ما يُصنعُ بالنساء؛ يُطرح على المرأةِ الثوبُ فيصفها (أي يُظهر حجمَ أعضائها)! فقالت لها أسماء: يا ابنة رسول الله، ألا أريك شيئاً رأيته بالحبشة؟ فدعت بجرائد[4] رطبة، فحنَّتها(أي: جعلتها محنية) ثم طرحت عليها ثوباً، فقالت فاطمة: ما أحسن هذا وأجمله! إذا مِتُّ فغسليني أنتِ وعليٌّ، ولا يدخلن أحدٌ عليَّ، قال ابنُ عبد البر: هي أولُ من غُطي نعشها في الإسلام على تلك الصفة.

---

1 - أبو تمام

2 - (الورع لابن أبي الدنيا)

3 - عنترةفي قصيدته (يا عَبلُ أينَ من المَنِيَّةِ مَهْربي)

4 - (عيدان الجريد)

إذا كان هذا حياء فاطمة ﵂ عند الموت، تريد غطاءً مرتفعاً من جريد تُعرف به المرأة من الرجل ولا يُعرف لها حجم وهي تحته، فلا ينظر إليها بعد إذ علم أنها امرأة، فماذا نقول لمن تلبس الثياب المجسمة التي تظهر تفصيلات جسمها لتعرضه على البر والفاجر؟ إنَّ الحيية المحتشمة امرأةٌ، والمتبرجة التي لا تخجل أيضاً امرأة، لكن كمْ من الفرق بين المرأتين؟

ويقول إيليا أبو ماضي:

ليس الكفيفُ الذي أمسى بلا بصرٍ ...إنّي أرى من ذوي الأبصار عميانا

فمن المبصرين مَنْ أُصيبَ بعمى القلب والبصيرة، ومنهم مَنْ فقد البوصلة القرآنية فضاعَ في سراديب ومتاهاتِ الحياة، وأضاع غيره؛ قيل أنه:"كان عند بعضِ القرشيين امرأةٌ عربية، ودخلَ عليها خَصِيٌّ[1]، يعملُ عند زوجها وهي واضعة خِمارها، فحلقتْ رأسها وقالت: ما كان ليَصْحَبَني شَعْرٌ نظر إليهِ غيرُ ذي محْرم"[2]؛ يرحمك الله أيتها الأعرابية.

وهذا ابنُ الجوزي رحمه الله يقول: "الكمالُ عزيزٌ، والكاملُ قليلُ الوجودِ، وأولُ أسبابِ الكمالِ تناسبُ أعضاءِ البدن وحُسنُ صورة الباطن، فـ صورة البدن تُسمى خَلْقاً، وصورة الباطن تُسمى خُلُقاً، ودليلُ كمال صورة البدن حُسنُ السَّمْتِ واستعمالُ الأدب، ودليلُ كمال صورة الباطن حُسنُ الطبائع والأخلاق، فالطبائعُ: العفة والنزاهة والأنفة من الجهل ومباعدة الشرَه، والأخلاق: الكرمُ والإيثارُ وسترُ العيوب وابتداءُ المعروف والحلمُ على الجاهل، فمن رُزقَ هذه الأشياء رقَّته إلى الكمال، وظهر عنه أشرف الخلال، وإن نقصت صفة من هذا فيه أوجبت النقص"؛ ومَرَّ عمرُ بن الخطاب ﵁ في بعض طرق المدينة فسمع امرأة تقول:

دعتني النفسُ بعد خروجِ عمرو

إلى اللذاتِ فاطلعت تلاعا[3]

فقلتُ لها علجتِ فلن تُطاعي[4]

ولو طالت إقامته رباعا

أحاذر إن أطعتك سبَّ نفسي

---

1 - (الذي ليس له في النساءِ مأربٌ)

2 - (ذكرها ابن قتيبة في عيون الأخبار)

3 - (تلع: طالت إقامته)

4 - (علجت الناقة: اضطربت)

ومخزاة تجللني قناعا

فقال عمرُ: أيُّ شيءٍ منعكِ؟ قالت – واسمعي ما قالت-: منعني الحياء، وإكرام عرضي، فقال عمرُ ﷺ: "إن الحياءَ كلُّه خير، مَن استحيا استخفى، ومَن استخفى اتقى، ومَن اتقى وقي"، وكتب إلى زوجها فأعاده إليها، جزى الله عمر عن الإسلام خيراً، ثم يأتي ابنه (عبدالله) فيكمل لنا الدرس قائلا: اشتريتُ إبلًا وارتجعتها إلى الحمى، فلما سمنت قدِمتُ بها، فدخلَ عمرُ السوقَ فرأي إبلًا سمانًا فقال: لمن هذه الإبل؟ قِيل لعبد الله بن عمر، فجعل يقولُ: يا عبدَ اللهِ بن عمر: بخٍ بخٍ، ابن أمير المؤمنين! فجئتُ أسعى، فقلتُ: مَالَكَ يا أمير المؤمنين؟ قال: ما هذه الإبل؟ قلتُ: اشتريتها وبعثتُ بها إلى الحمى أبتغي ما يبتغي المسلمون، فقال:" ارعو إبلَ ابن أمير المؤمنين، اسقوا إبلَ ابن أمير المؤمنين، يا عبد الله بن عمر، اغدُ إلى رأسِ مالِكَ، واجعلْ الفضلَ في بيتِ مالِ المسلمين"! يرحمك الله يا عمرُ، تركتَ لنا سقفاً من العدلِ والمراقبة ما نحن ببالغيه، لذا أقولُ كما قال سعيدُ بن المسيب: (لا تملؤوا أعينكم من أعوانِ الظلمة إلا بإنكارٍ من قلوبكم، لكيلا تحبط أعمالكم الصالحة).

وخرجَ عبدُ الله بن جعفر إلى ضيعةٍ له فنزلَ على نخيلِ قومٍ فيها غلامٌ أسودُ يقومُ عليها، فأُتِيَ بثلاثةِ أقراص(أرغفة)، فدخلَ كلبٌ فدنا منه، فرمى إليه بقرصٍ فأكله، ثم رمى إليه بالثاني والثالث فأكلهما، وعبدُ الله ينظر إليه؛ فقال: يا غلام، كم قُوتكَ كلَّ يومٍ؟ قال: ما رأيتَ!! قال: فلمَ آثرتَ الكلبَ؟ قال: لأن أرضنا ليست بأرضِ كلابٍ، وأظنُّه جاء من مسافةٍ بعيدةٍ جائعاً، فكرهتُ ردَّه!! قال: فما كنتَ صانعاً اليوم؟ قال الغلامُ: أطوي يومي هذا!، فقال عبدُ الله بن جعفر: والله إن هذا لأكرم مني، فاشترى العبد والنخل؛ ثم أعتق العبد ووهب له النخل؛ لله دره العبد الأسود!! ولله دره ابن جعفر! إنها الرحمةُ التي تنسكبُ من قلبِ المؤمن سكباً لا مثيل له، ومراقبة الله في كلّ ذاتٍ، فتشمل الحيوان وحتى النبات والجماد، ناهيك عن الإنسان! لكن في معيةِ الطواغيتِ نراهم يُطعِمون الكلابَ لحمَ شرفاء الوطن ولا يرمون لهم بعلاجٍ يداوي مريضهم، فما بالنا بأرغفة ثلاث! وشتان الفارق بين إطعامٍ قد يكون باباً للجنةِ، وإطعامٍ قد يكون ولوجاً للنار.

وقيل لأعرابي وقد طال عِشقه لجارية من قومه: ما أنتَ صانع إن ظفرتَ بها ولا يراكما غير الله؟ قال: واللهِ لا جعلته أهون الناظرين؛ لا أفعلُ بها خالياً إلا ما أفعله بحضرة أهلها، حنين طويل، ولحظ من بعيد، وأترك ما يكره الربُّ ويفسد الحبَّ؛ إنها المروءة والنخوة والمراقبة!

واعلمي أنَّ الخمار كان عرفاً من أعراف الجاهلية وأقره الإسلام وامتدحه، فالرجل صاحب المروءة لا يقبل أن تسفر أمه أو أخته أو زوجته عن بدنها، أما ما نحن فيه فهو إلفُ المعصية لا أكثر، فالناسُ حين يعتادون المعصية لا يرونها على حقيقتها، وكما أن الأمراض المعدية تعمل فيمن لامسها أو اقترب منها، فالعالِم القوي المتصل بالله حين يقف في وجهِ الظالم تنتشر قوته بالعدوى فيمن حوله، ففعل العالِم الفاضل في الناس أقوى من قراءة ألف كتابٍ في الفضيلة، كما أن سلوكَ المرأة العفيفة أمام مرمي العين والبصر يكفي ويزيد عن قراءة الكثير من كُتبِ العفة، قال سليمانُ التَّيْمِيُّ رحمه الله:" إن الرجل ليصيب الذنب في السَّحرِ فيصبحُ وعليه مَذلَّتهُ"[1]، ومن لم يُكوِ قلبه بالخوف في الدنيا كُوِيَ بالنار في الآخرة، وكما أن حياة الغرس بمائه، فإن حياة الوجهِ بحيائه، رزقنا الله وإياكم جميل الحياء.

وفي فتح المدائن سخر الله نهر دجلة ليعبُر عليه المسلمون بخيولهم؛ ويعطينا جيشُ سعد بن أبي وقاص نموذجاً في المراقبة والتقوى من خلال المجموع وليس الفرد، فبعد انتصار القادسية العظيم على شاطئ دجلة يقول سعد ﷺ: إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تَخلُصون[2] إليهم معه، وهم يخلُصون إليكم إذا شاؤوا فيناوشونكم في سفنهم، وإني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم، فقالوا جميعاً: عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل، فندب الناس إلى العبور؛ وأمر المسلمين عند دخول الماء أن يقولوا:" نستعين بالله ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"، ثم اقتحم بفرسه دجلة واقتحم الناس، ولم يتخلف عنه أحد، فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض، فلا يُرى وجهُ الماءِ من الفرسان والرجَّالة، وجعل الناس يتحدثون على وجهِ الماء كما يتحدثون على الأرض، ولم يُعدم للمسلمين شيءٌ من أمتعتهم غير قدح من خشبٍ لرجلٍ يُقال له مالك بن عامر، فدعا صاحبُ القدحِ وقال: اللهم لا تجعلني من بينهم يذهب متاعي، فرده الموجُ إلى الجانب الذي يقصدونه، فأخذه الناس ثم ردوه على صاحبه بعينه؛ وخرج المسلمون من النهر ولم يغرق منهم أحد، ولم يفقدوا شيئاً، ودخلوا المدائن ولم يجدوا بها أحداً[3].

وإني لأقف متعجباً من جيش سعد ﷺ! أتعجبُ من هذا الثبات الانفعالي في مراقبة الله ومعيته ويقينه وحسن التوكل عليه؛ أفهم أن الله قد يلهم رجلاً ثباتاً في موقفٍ عكس قانون المادة والطبيعة، وقد يزيد العدد فيثبت رجلان أو أكثر في مواقفَ لا تتكرر؛ لكن أن يصل الأمرُ بجيش بهذا العدد والعتاد، وفي الجيش الكبير

---

[1] - (الداء والدواء) (60)

[2] - تَصلُون

(3) البداية والنهاية لابن كثير 7/70-72 باختصار.

والصغير والعالم وقليل العلم؛ يا إلهي! حتى القدح! كم للهِ من جنود لا نراها! وهو اليقين حين يتجاوز الطبيعة وأسبابها، ويتعلق بخالق الطبيعة ومسببِ الأسباب؛ فمن راقب الله رقَّاه، وأتاه من حيث لا يحتسب.

وقال ابن الجوزي:"كلامـــك مكتوب، وقولك محسوب، وأنت يا هذا مطلوب، ولك ذنوب وما تتوب، وشمس الحياة قد أخذت في الغروب! فما أقســـى قلبك من بين القلوب"، للأسف وللأسف الشديد! أتقنَّا فن المبارزة والمحاجة والمخاصمة والمشاحنة والخلاف، وافتقدنا إلى آداب ديننا وقيمنا السمحة وأخلاقياتنا التي يتغنى بها التراث، فسقطنا فريسة سهلة للتآكل الداخلي، والصدأ النفسي، والتنازع والتنابز والتناحر، وإعجابِ كلِّ ذي رأي برأيه، وكل ذلك وغيره أورثنا معيشة ضنكاً، وحياة فاشلة، وإن لم نعد إلى قيمنا وديننا سنفشل وينتهي بنا الحال إلى ما هو أسوأ من الفشل وذهاب الريح مصداقا لقوله تعالى: " ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم"[1]، رد الله أبعدنا عن الصواب إلى الصواب.

ويرحمُ الله هشام بن عبد الملك حين وصف عمر بن عبد العزيز قائلاً: (ما أحسبُ عمر خطا خطوةً قط إلا وله فيها نية)، وهنا تكمن عظمة هذا الخليفة الذي وفقه الله لأن يصلح دولة في عامين، وبعضنا قد يحتاج لأعوامٍ لإصلاح غرفته التي يقطنها، فحين يَهَبُ المسلمُ حياته لخالقه؛ وينذر روحه وسعيه لذلك يشعر بلذة الحبِّ والقرب والمعية، فالحبُّ ليس شعوراً فقط؛ لكنه شعورٌ يغذيه فعلُ الحبِّ، فمن غرس نبتةً وتعاهدها تنشأ بينه وبينها مودة ومراقبة، ومن تقتني بعض الطيور وتقوم بإطعامها وتربيتها تنشأ بينهما علاقة حب ورحمة، فالمسلم الحقيقي لا تطيب نفسه ولا يستعذب حبَّه لله إلا بقدر ما يبذل من المجاهدة والإعراض عن الهوى، وإقباله على الطاعات ونصرة دين الله وإعلاء كلمته، ومن أقبل على اللهِ رأى من إقبالِ اللهِ عليه عجباً.

وأجملُ الورعِ تركُ الحلالِ مخافة الحرام، وهذا رسولنا ﷺ يتركُ التمرة مخافة أن تكون من تمر الصدقة، وذاك إبراهيم بن أدهم يترك أُجْرَتَهُ لشكِّهِ في وفاءِ عمله، وطوى رغم شدة جوعه، وسألتْ أختُ بِشرٍ الحافي أحمد بن حنبل: إنا نغْزلُ على سطوحنا فيمرُّ بنا مشاعلُ الظاهرية (الحرس)، ويقع الشعاعُ علينا، أيجوز لنا الغزلُ في شعاعها؟ فقال: من أنتِ عافاك الله؟ قالت: أختُ بشر الحافي، فبكى وقال: من بيتكم يخرجُ الورع الصادق، لا تغزلي في شعاعها! فيا أنا... ما لم تعلم حِلَّه يقيناً فاتركه، أترانا نقدر على ذلك؟ لو حاسبنا أنفسنا على الوفاء في العمل لتركنا مرتباتنا إلا من رحم! ولو تورعنا ورع أخت بشر لكان جلُّ طعامنا الخبز الجاف وإدامنا لا يتجاوز الماء، أقرُّ وأعترفُ حين قارنت حالي مع حال إبراهيم بن أدهم أيقنتُ كم أخذتُ أُجرةً لا تحل لي، وكم أطعمتُ أولادي من حرام؛ نسأل الله أن يغفر لنا جميعاً.

---

[1] - (الأنفال: 46)

"اهدنا الصراط المستقيم"... آية نقولها مراراً وتكراراً في اليوم، ولو تقبلها الله منا لنجونا، فاعلمي أنَّ اشتقاق كلمة الصِّراط اللغوي قيل أنه: (صَرَتُّ الشيء(إذا بلعته بلعاً سهلاً) وُسمى الصراطُ صراطاً لأنه يصترطُ المارَّ فيه؛ بمعنى أنه يحتويه بسهوله، وقيل أيضا: لا يقال عن الطريق صراطٌ إلا إذا توفرت فيه خمسة أشياء وهي: أن يكون طريقاً سهلاً؛ مستقيماً؛ مسلوكاً؛ واسعاً؛ موصلاً إلى المقصود أو الغاية.

وقيل: على قدر استقامة المرء في الدنيا تكون استقامته في الآخرة، وعلى قدر ثبوت العبد على الصراطِ الذي نصبه الله لعباده في الدنيا يكون ثبوتُ قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم يوم القيامة، وعلى قدر سيره على هذا الصراط هنا يكون سيره على ذاكَ الصراط هناك! ويرحم الله عمر بن عبد العزيز حين قال: يا عبد اللهِ: إن الشمعةَ التي رأيتني أطفأتها من مالِ الله ومال المسلمين، وكنتُ أسألكَ عن حوائجهم وأمرهم، فكانت تلك الشمعةُ تَقِدُ بين يديَّ فيما يُصلحهم، وهي لهم، فلما صِرتُ لشأني وأمرِ عيالي ونفسي(أي سألتني عنهم) أطفأتُ نار المسلمين؛ يرحمك الله يا عمر... يستكثر على نفسه نور شمعة من مال المسلمين وينثر الْحَبَّ على الجبالِ لتأكل الطير، وليته يرى طواغيت المسلمين وملوكهم اليوم كيف يفكرون في المسلمين وأموالهم؟ وربما نثر بعضهم جثث المسلمين للسباع والضباع في الصحراء بعد حرقها، وكأن شعارهم: إكرام المسلم حرقه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذا (يونس بن عبيد) تلقى عن الحسن البصري عليهما رحمة الله، يعطينا درساً في مراقبته في البيع والشراء، كان عالماً تقيّاً ورعاً، وتاجراً يشتري بأغلى الأثمان، ويبيع بأرخصها، ودائب النصح في الدين والدنيا، كان منهج حياة، ها هو تأتيه امرأة بجبةِ خزٍّ، فقالت له: اشترها؛ فقال: بكم تبيعيها؟ قالت: بخمسمائة، قال: هي خير من ذاك؛ قالت: بستمائة؛ قال: هي خير من ذاك، فلم يزل يقول: هي خير من ذاك، حتى بلغت ألفاً وقد بذلتها بخمسمائة؛ هذا يشتري بما يرضي الله ثم ضميره مهما زاد الثمن، وعالمٌ يبيع إخوانه بثمنٍ بخسٍ كراسي معدوداتٍ أو بلا ثمن، وحسبنا الله ونعم الوكيل في كل من أعان ظالماً أو غشَّ مؤمناً.

بنيتي... أغمضي عينيكِ برهةً، ودعي جوارحَكِ تتأملُ وخلجاتكِ تتعلمُ، ونفسكِ تقتدي ثم تهتدي؛ وتسمعُ هذا القول العظيم من أم المؤمنين عائشة ﷺ وهي تقولُ عن نفسِها:"كنتُ أدخلُ البيتَ الذي دُفِنَ فيه رسولُ الله ﷺ وأبي ﷺ واضعةً ثوبي وأقولُ: إنما هو زوجي وأبي، فلما دُفِنَ عمرُ ﷺ معهما واللهِ ما دخلتُ إلا مشدودة عليَّ ثيابي حياءً من عمرَ ﷺ"؛ يرحم الله أم المؤمنين التي تستحيي من ميتٍ في جوفِ الثرى، أفلا نستحيي ممن يدبُّ دبيباً فوق الثرى ودون الفاروق؟

واعلمي يا بنية أنه: يُزْهِرُ بستانُ الخشيةِ متى هطلتِ العبراتُ من سحائبِ العيون، فتنبتُ في الخدودِ أخاديدَ المراقبة وتتعطرُ أنفاسُ النفسِ بالذكرِ والمناجاةِ، وما أعذبها من حروف حين نقول: يا الله! وما رأيتُ في حياتي أبلغ وأغلى من (شرفُ المؤمنِ قيامُ الليل)، ولم أجد نفيساً يزهد أغلبنا فيه مثلما نزهد في هذا الشرف،فليكن شعارنا... أمت بذورَ الكراهيةِ في كهوفِ الأفئدةِ قبلَ الأصعدةِ، والتخلية قبل التحلي! كانَ له رغيفٌ كلَّ يومٍ، ليس له سواهُ، وكل يومٍ يتركُ لقمةً حتى إذا كان يوم الجمعة، أكلَ اللقمَ وتصدقَ بالرغيفِ. ليته كان كاملاً.

همسة ... أين الطواغيتُ؟ أين الفراعينُ وحاشيتهم؟ بل أين أفكارهم ومعتقداتهم الفاسدة؟ هل ماتت وفُنيت عند رحيلهم؟ يقيناً تتشابه المياهُ الآسنة من حيثُ المجرى، وتتوحد وتلتقي المراحيضُ عند النهاياتِ، ولا فرق بين ظلامٍ وظلامٍ، وظلامُ اليومِ يشبه ظلامَ الأمس والغدِ، وعفونة البطنِ منذ ألفِ عامٍ تشبه عفونة البطن بعد ألفِ عامٍ، هي نفسها الأسماء منذ تعلمها أبونا آدم من ربِّ العالمين، هي ذاتها الصراعات، حقٌّ وباطلٌ، ظلمٌ وعدلٌ، فقرٌ وغنى، جنةٌ ونارٌ، ومازال الصراعُ مستمراً.

العلم ومزاحمة العلماء

أَلَّفَ المؤلفاتِ في التفسير والفقه وغير ذلك، ولم يَظهر شيءٌ في حياته، ولما دنت وفاته قالَ لشخصٍ يثق به: الكتبُ التي في المكانِ الفلاني كلها تصنيفي، وإذا عاينتُ الموتَ ووقعتُ في النزعِ فاجعلْ يدكَ في يدي، فإنْ قبضتُ عليها فاعلم أنه لم يُقبل مني شيءٌ، فاعمد إليها وألقها في دجلة بالليلِ؛ وإذا بسطتُ يدي فاعلم أنها قُبلت مني وأني ظفرتُ بما أرجوه من النيةِ الخالصة، فلما حضرته الوفاةُ بسطَ يده ، فظهرتْ كتبُه بعد ذلك !هذا هو الماوردي مؤلفُ (أدب الدنيا والدين)، وإنْ لم يكتب سواه يكفيه ويزيد ويفيض، ورغم ذلك يخشى الرياء والسمعة وحبَّ الشهرة ويرجو الإخلاصَ! أما نحن فحدث ولا حرج، نظنَّ أنفسنا الأدباءَ والعلماءَ والخبراءَ وربما ما قُبلَ منا حرفٌ؛ نسألُ اللهَ حُسنَ الفهمِ وصلاحَ النيةِ.

وقال المبردُ: ما رأيتُ أحرصَ على العلمِ من ثلاثة: الجاحظ والفتح بن خاقان وإسماعيل بن إسحاق القاضي، أما الجاحظُ فإنه كان إذا وقع في يده كتابٌ قرأه من أوله إلى آخره؛ أي كتاب كان! وأما الفتح بن خاقان فكان يحمل الكتابَ في خُفِّهِ، فإذا قام من بين يدي المتوكل ليبول أو يصلي أخرج الكتابَ فنظر فيه وهو يمشي حتى يبلغَ الموضعَ الذي يريد، ثم يصنع مثل ذلك في رجوعه إلى أن يأخذ مجلسه؛ وأما إسماعيل بن إسحاق فإني ما دخلتُ عليه قط إلا وفي يده كتابٌ ينظر فيه، أو يقلب الكتبَ لطلب كتاب ينظر فيه أو ينفض الكتب؛ أما نحن الآن فلا نعرف للكتبِ طريقاً إلا من رحم، وإن ملكناها تركناها للتراب يسكنها، ونسينا أو تناسينا أننا أمة (اقرأ)، ويكفينا هز الخصور على دقات الطبول! فهذا أسهل وأيسر وأفضل من شحذ العقول ولا حول ولا قوة إلا بالله!!!.

أي بنية...حرص الإسلامُ على نشر العلم بين أبناءِ الأمة، فكانت أولُ آياته نزولاً: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ"، وأولُ أداةٍ وآلةٍ ذُكِرتْ هي القلم، وكان سيدنا مُحَمَّد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقوم على تربية أصحابه بالتعليم والتوجيه، ففي مكة كان يمارسُ ذلك من خلال تواجده المستمر بينهم، ولقائه الدائم بهم في دار الأرقم، وفي المدينة استمر في التربية من خلال المسجد، ونشر التعليم والتعاليم بين أصحابه، فجعل فدية مَن يعرف القراءةَ مِن أسرى بدرٍ أن يُعلِّمَ عشرةً مِن أبناء المسلمين، وكان يُعلِّم وفود البلاد التي تأتيه، ويأمرُهم بالرجوع إلى بلادهم؛ حتى يُعلِّموا مَن خلفهم، وكان ذلك من صميم مهمته وهدفاً من بعثته، فقال

تعالى:(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) (الجمعة: 2).

ولقد منح الله عزَّ وجلَّ الإنسانَ الوسيلةَ التي من خلالها يُسْتدلُ عليه، هذه الوسيلة هي العقل، والعقل من أعظم مخلوقات الله، والكون بما فيه لأجل الإنسان خُلق، وتذكري كذلك أن الذي خلقكِ قد طالبكِ بالنظر إليه والتفكر فيه، والاستدلال من خلاله عليه"أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ"(الأعراف:185)، وقيل :"لا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار؛ وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم، وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورُتبته، ولكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره"[1]، فالتفكر يورثُ الحكمة ويحيي القلوب ويُوصل إلى رضوان الله ومحبته، وقال وهب بن منبه: "ما طالتْ فكرةُ امرئ قَطُّ إلا علم، وما علم امرؤٌ قَطُّ إلا عَمِلَ"، ويقول الشاعر[2]:

وإنَّ من أدبتهُ في الصبا ...كالعودِ يُسقى في غرسه

حتى تراه مورقاً ناضراً ... بعد الذي أبصرتَ من يُبْسِهِ

فإذا أُدِبَ الإنسان في صغره كان كالعودِ يُتعهدُ بالسقي من أول غرسه، ولا يزال ينمو العود حتى تراه ذا ورقٍ ناضر بعد أن كان يابساً، ويقول الماوردي في كتابه[3]: "العلم أفضل ما طُلب وُجَدَّ فيه الطالبُ، وأفضلُ ما كُسِبَ واقتناه الكاسبُ"، وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: "تعلموا العلم فإن كنتم سادةً فُقْتُم، وإن كنتم وسطاً سُدتم، وإن كنتم سُوقةً عِشتم"، وقيل: من أمضى يومه في غير حَقّ قضاه أو فرضٍ أدَّاه أو مجدٍ أثَّله أو حمدٍ حصَّله أو خير أسَّسه أو علمٍ اقتبسه فقد عَقَّ يومَه وظلم نفسه.

وبدأ منهجُ الأمةِ بشعار" اقرأ"، فأمنُ الأمةِ في فكرها، وأمانُ الأمة في دينها، فلا تدع الآخر يفكر عنكِ، ومن جعلَ همَّه رغيف الخبز فقد رغيف الفكر، ومن طرق باب المعرفة حتماً سيفتح له، ومن فُتِح له رقَّ؛ ورحمَ اللهُ مَنْ قالَ:" الناسُ نيامٌ؛ فإذا ماتوا انتبهوا"، لاحظ وتأمل كلمة (انتبهوا)، توقف مَليّاً واسألْ: لماذا لم يقل (استيقظوا)؟ وكلنا يعرفُ أن اليقظةَ تُقابلُ النومَ... والفارقُ شاسعٌ؛ فجميعُ من يدبُّ على الأرضِ يستيقظُ، لكن القليلَ مَن

---

[1] - الغزالي في الإحياء

[2] - صالح بن عبد القدوس

[3] - أدب الدنيا والدين

ينتبه؛ فأكثرنا يحملُ لساناً ناقداً لاذعاً ولا يقدمُ حلّاً، وهذا ببساطة هو الفارق بين اليقظ والمنتبه، فالمنتبه حين يرى الأذى يُميطه ولا ينتقدُ واضعَه ولا يلعنه، والمنتبهُ يزيلُ الأشواكَ ولا يتأففُ منها، فالقصدُ مِن الانتباه هو اليقظة القلبية والفكرية وليس فرك الجفون أو غسل العيون، الانتباه هو رؤية الأشياء على حقيقتها مجردة دون هوى أو مَيْلٍ أو تقليدٍ أو ابتداع؛ الانتباهُ هو رؤية البصيرة المرتبط بالعمل ولا ندري أيهما يسبق الآخر.

والبون شاسع بين التربية وبين التعليم؛ فهدف التعليم هو إيصال المعلومة إلى المتلقي واستيعابه وفهمه لها دون النظر إلى تطبيقه أو عدم تطبيقه لمقتضاها، أما هدف التربية فهو إيصال المعلومة مع الممارسة المستمرة لمقتضاها، وما تدل عليه في الواقع العملي، حتى تُنشئ في ذات المتلقي أثراً دائماً ينتج عنه تغيُّر في سلوكه، فلا تكفي المعرفة النظرية بالقيم والأخلاق لكي تصبحَ واقعاً وسلوكاً في حياة المرء، بل لابد أن يتربى عليها ويرتقي بها، ويمارسها واقعاً وتطبيقاً، وجيل هذه الأيام يستحق العطف والشفقة، فهو مجنيٌّ عليه، وطموحات الأيام لا سقف لها، ربما أيامنا رغم الفقر وقلة ذات اليد أفضل بكثير، وكان التوازنُ موجوداً ونحرص عليه، أما الجيل الحالي فلا سقف لأمانيه، ولا حد لتطلعاته، لكن يبقي صراعُ الأجيالِ سُنَّةٌ كونية، والهوة بين الآباء والأبناء متسعة، وهذا الجيل ربما لديه من المعارف ما يفوقنا بكثير، لكنه يفتقد للقدوة المتحضرة والتي تواكب وتساير عصره، وعليه مآل وآمال النهوض إلى الأفضل، فواقعنا يشهد بسقوط عالم ما يسمى النخبة والقادة إلى حدٍّ كبير، ويعجبني جداً إيمان هذا الجيل بقدراته، لكنه يحتاج إلى ضبط بوصلة الأخلاق لديه.

ويقول الحسن البصري: "لما خلق الله عز وجل العقلَ قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، وقال: ما خلقت خلقاً هو أحبُّ إليَّ منكَ، إني بك أُعبد، وبك أُعرف، وبك آخذ، وبك أعطي"[1]؛ وبالعقل والتفكير يستطيع الإنسان أن يتعرف على مظاهر الكون المادية والمعنوية، وكيف تتلاءم أجزاؤها في الطبيعة، وكيف تتداعى في العقول، فكلما ازدادت معرفة الإنسان بربِّه ازداد حبُّه له، وافتقاره إليه، واعتماده عليه، واستسلامه له؛ لذلك فإن نقطة البداية الصحيحة لتحقيق العبودية هي (معرفة الله) عز وجل، ومتى تعرف المرءُ على ربِّه أكثر

---

[1] - (شعب الإيمان للبيهقي برقم (4632)

عبده بصورةٍ أفضل، وكلما جهل المرء ربَّه كلما ابتعدت معاملته له عن الصورة المطلوبة "وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ" (الزمر: 67).

واعلمي أن الإنسانَ بطبعه عدو ما يجهل، فمجرد إزالة الجهل والرَّان من القلوب، تنطلق الطاقاتُ المخبوءة داخل النفس، فنحن نحتاج إلى مَن يخرج الخير الكامن في أعماقنا، وفي قصة موسى ـ عليه السلام ـ ما يؤكد ذلك، فهذا فرعون وسحرته شاهدوا العصا تتحول إلى حيةٍ عظيمة، فآمنَ السَّحرةُ ولم يؤمن فرعون، ليظهر الفارق في سبب الكفر واضحاً، فالسحرة قد منعهم الجهلُ من الإيمان بالله أول الأمر، لكن عندما شاهدوا الآية العظيمة أذعنوا واستسلموا، أما فرعون فقد ضرب الكبرُ على ناصيته، وشيَّد سياجاً من الجهل على فؤاده؛ و وهذه بلقيس ـ ملكة سبأ ـ بعد دعوة سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ لها ورؤيتها الآيات المبهرة، وكانت وقومها يعبدون الشمس، نجد القرآن يبين سبب كفرها أنها نشأت بين قوم كافرين، وهذا يعني أنها كانت جاهلةً بالحقيقة، وغابت عنها، فلما بلغتها الدعوة ورأت الآياتِ آمنت، فيقول تعالى:" وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ"[1]، ولابد من تعانق الفكر بالوجدان لتثمر بذورُ الإيمان: "وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ"[2].

وأغلبُ الناس لديهم قدرات متفاوتة، فقد نجد من لدية ملكة الفهم أقوى من ملكة الحفظ، وآخر لديه الجانب الحركي أقوي من الجانب المعرفي، وذاك يتميز في جانب الشعور والوجدان، فعلى المربي أن يكتشف لدى المتلقي أي الجوانب أفضل؟ ويستغلها بأفضل ما يكون، فالمرءُ مجموعة ملكات وقدرات، والمربي لديه مفتاح كل ملكة، فعليه أن يحسن توظيف هذه الملكات، بل ويحسن توظيف الأشخاص، فيكون كلٌّ مناسباً في مكانه.

وقوة التأثير لا تأتي بالسوط ولا بالعنف، إنما تكون بمعرفة الميول النفسية، فالذي يحكم الجسم ليس كالذي يحكم الروح، لأن النفسَ تستقبل الأشياء مصحوبة بالسرور، وتنفر منها إذا صحبها الخوف ورافقتها الرهبة، فهذا زيد بن ثابت ـ ﷺ ـ كان عُمُرُهُ لما قدم النبي ـ صلى الله

[1] - (النمل: 43)

[2] - (الحج: 54)

عليه و سلم ـ المدينة إحدى عشرة سنة، وأمره النبي ـ ﷺ ـ لما رأى شدة ذكائه أن يتعلم لغة اليهود حتى يأمنَ مكرهم؛ وقيل أنه تعلمها في شهرٍ.

والعقلُ رأسُ الأدبِ، وأفضلُ ما لدى المرء، وهو كامنٌ في جسده كمونَ الطيبِ في العود، أو هو بمثابة الرائحة في قارورة العطر المغطاة، فالأول لا يُرى طيبه وحسن رائحته إلا حين يُقدح بالنار، والثانية لا تُشمَّ إلا حين نزع الغطاء، ونضجُ عقلكِ وصلاح أدبكِ لا يظهران إلا عند الملماتِ والشدائد، فلنكن عند الظلام ضوءاً، وعند الظمأ ريّاً، وعن المظلوم مدافعاً، وعند الطاغية رافضاً، وقال على بن أبي طالب: "التوفيقُ خيرُ قائدٍ، والأدبُ خيرُ ميراثٍ، والعقلُ خيرُ صاحب، وحسنُ الخلقِ خيرُ قرين، ولا وحشة أشدُّ من العُجبِ"، وبقدر حنان القلبِ يتسعُ الصدرُ فيعبر اللسان، وصدق القائل[1]:

لسانُ المرء نصفٌ ونصفُ فؤادُه... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وتأكدي أن الجهلَ في القلبِ كالنزِّ في الأرضِ يفسد ما حوله، وقيل:" لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه عن ثلاثةِ سِياط شيئاً"[2]، وحين دفع الرشيد ابنه محمد الأمين لمعلمه قال له:" يا أحمر: إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه، فيَدُكَ عليه مبسوطة وطاعته لكَ واجبة، وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن وعرفه الأخبار، ورَوِّهِ الأشعار وعلِّمْه السنن، وبّصِّرْه بمواقع الكلام؛ وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، ولا تمرَّنَّ بك ساعة إلا وأنت مغتنمٌ فائدةً تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيستجلي الفراغ ويألفه، وقوِّمْهُ ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أبى فعليك بالشدة والغلظة". يرحم الله الرشيد ماذا عساه يقول لو رأى معلمي اليوم؟

ويقول الإمام الشافعي مبينًا عظيم اغتباطه بالعلم، ولذته، وفرحه به:

سهري لتنقيح العلوم ألذُّ لي... من وصْلِ غانيةٍ وطيبِ عناقِ
وصرير أقلامي على صفحاتها... أحلى من الدوكاء[3] والعشاقِ
وألذُّ من نقْر الفتاة لدفِّها ... نقريْ لألقي الرمل عن أوراقي
وتمايُلي طرباً لحلِّ عويصةٍ ... في الدرسِ أشهى من مدامة ساقي

---

[1] - (معلقة زهير بن أبي سلمى)
[2] - (محمد بن أبي زيد في كتابه الذي ألفه في حكم المعلمين والمتعلمين)
[3] - (الدوكاء: النكاح)

وأبيت سهران الدُّجى وتبيته... نوماً و تبغي بعد ذاك لحاقي

وهناك مواقفُ لا تُحصى ولا تُعد لمن بذلوا حياتهم لأجل العلم، وكتبُ التاريخ والدين حافلة بنماذجَ فذةٍ في هذا المجال، ورأى الإمام أحمد بعضُ عارفيه في إحدى رحلاته في طلب الحديث، فقال له معترضاً مستكثراً ما حفظ وما روى: مرة إلى الكوفة، ومرة إلى البصرة؛ إلى متى يا إمام؟ فقال الإمامُ أحمد: مع المحبرة إلى المقبرة! فهناك من لا يحمل همَّ ذاته وهو عالة أينما وُجد، وأكثرنا يسهر على برامج (التوك شو) التي لا طائل من ورائها، فهذا حجمنا وهذه همتنا إلا من رحم، وهناك مَن يحمل همَّ الأمة بأسرها على كاهله.

وفي تواضع العلماء يحدثنا يحيي بن معين[1]: ما رأيتُ مثل أحمد بن حنبل، صحبناه خمسين سنة، ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الصلاح والخير، وكان رحمة الله يقول: نحن قوم مساكين؛ قال الحفاظ: رأينا الإمام أحمد نزل إلى سوق بغداد، فاشترى حزمةً من الحطبِ، وجعلها على كتفه؛ فلما عرفه الناس ترك أهل المتاجر متاجرهم ، وأهل الدكاكين دكاكينهم، وتوقف المارة في طرقهم، يُسلِّمون عليه، ويقولون: نحملُ عنكَ الحطبَ، فهزَّ يده واحمر وجهه ودمعت عيناه وقال: نحن قوم مساكين، لولا ستر الله لافتضحنا؛ وأتاه رجلٌ ليمدحه، فقال له الإمام أحمد: أشهد الله إني أمقتك في هذا الكلام، والله لو علمتَ ما عندي من الذنوب والخطايا لحثوتَ على رأسي بالتراب، وكان يقول: يا ليتني ما عرفتُ الشهرة، يا ليتني في شِعبٍ من شِعابِ مكة ما عرفني الناس!! فما أعظم الفارق بين العُلماءِ والعَوالِم!

والعلم الذي لا يوجب الخشوع في القلب علم غير نافع؛ وقال سفيان الثوري: إنما فُضِّلَ العلمُ لأنه يُتَّقى الله به، وإلا كان كسائر الأشياء؛ وقال الإمام أحمد: أصل العلم خشية الله، وقال بعضُ السلف: ليس العلم كثرة الرواية وإنما العلم الخشية، وفي حكم ابن عطاء:(العلم إن اقترنت به الخشية فلكَ، وإلا فعليك)؛ وعندما سُئل الإمام أحمد عن معروف الكرخي وقيل له: هل كان معه علم؟ فقال:"كان معه أصل العلم، خشية الله عز وجل"[2].

وتعظم في عين الصغير صغارُها .... وتصغر في عين العظيم العظائم.

---

[1] - (ذكره أبو نعيم فيالحلية)

[2] - (مجموع رسائل ابن رجب 2/ 787).

ويُقال أن مُحمَّداً بن جرير الطبري المتوفى عام 310هـ عن ثلاث وثمانين سنة أنه مكث أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين ورقه"[1]؛ فالمرء يقف صغيراً مشدوهاً ومحتقراً لذاته وتقصيره في تحصيل العلم حين يسمع بهذه النماذج الرائعة، يا إلهي !كتب ما يقرب من أربعة وثمانين وخمسمائة ألف ورقة، ونحن نتفنن في اللهو وتضيع الوقت وراء ما هو زائل! أما عن براية أقلام ابن الجوزي فحدث ولا حرج، فيُقال أن ما خلفته هذه البراية من بري الأقلام جُمعت فحصل منها شيء كثير، فأوصى أن يُسخَّنَ بها الماء الذي يُغسل به بعد موته، ففُعل فكَفَّتْ وفضل منها.

ولله در الشاعر حين يقول:

وقائلةٍ: لِمْ غيرتك الهمومُ .... وأمرك ممتثل في الأممْ

فقلت: ذريني على غُصَّتي .... فإن الهموم بقدر الهمم.

وهذه قصة امرأة صالحة عَدَّها ابن الجوزي ضمن المشهورات مِن نساء الكوفة، كانت تتكسبُ من مغزلها وتنفق على ابنها، كانت محبة للعلم، وتعرف قيمته في رفع شأن الإنسان، وكانت تقول: يا بني اطلب العلم وأنا أكفيكَ بمغزلي، وتابعتْ تعليمه قائلة: يا بني إذا كتبتَ عشرة أحرف فانظر هل ترى في نفسك زيادة في مشيكَ وحلمكَ ووقاركَ؟ فإن لم يزدك علمُك فاعلم أنه لا يضرك ولا ينفعك، استجابَ الولدُ لتوجيهاتِ أمه وسلك طريق العلم، واجتهد في تحصيله وتطبيق آدابه حتى أصبح أحد أئمة الإسلام وعُبَّادهم، ساد الناس بعلمه وعمله وورعه وخشيته لله وطاعته لأمه، فرفع الله ذكره مصداقاً لوعده تعالى: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)[2]، هذا العالم الورع كان ثمرة طيبة لأم صالحة أحسنتْ التربية وأحسنت التوجيه،لم تطلب من ابنها أن يسعى لينفقَ عليها، ولم تقبل منه مِهنةً لا ترفع من شأنه في الدارين، بل كفلته بمغزلها وأمرته بمجالسة العلماء، رحم الله أم سفيان الثوري، وها أنا أتعلم من هذه الأم الفاضلة، وأقول لكِ يا مريم مثل قولها... فعليكِ بالعلمِ وسأبيعُ لكِ الغالي والنفيس لأجله، فإن تباهتْ زميلاتك بجمالهن فتباهي أنتِ بعلمكِ وحسن أدبكِ.

3ـ المصدر (علو الهمة)

[2] - (المجادلة:11)

واعلمي يا بنية أنِّي متطفلٌ على موائدِ المعرفةِ علَّني أستمطرُ بعضَ سُحبِ الوعي، ومتسكعٌ على أبوابِ العلماءِ ربما أفوزُ بلقيماتٍ يُقمن فكري المعوج، ومتسولٌ حفيتْ أقدامُه على أرصفةِ العلمِ لأسترَ فلساً يعتري ذاتي! إنه أنا وحسب.

وبعضُ الأفكار تُولدُ مِن عقلِ صاحبِها عاهرة كأنها حملتْ من سِفاحٍ، وكأن القلم الذي يُكتبُ به بغيٌّ؛ لكن ... مَن غرسَ يا بنية في صحيفته المعرفةَ فستزهرُ يوماً في عقلِ قارئٍ، ومن زرعَ فضيلةً فستنبتُ في قلبِ مُتأملٍ، أما مَن أنبتَ أملاً في نفسٍ بائسةٍ فكأنه قام بتجديدِها أو صيانتِها من العطبِ؛ فاغرسوا المعارفَ وازرعوا الفضائلَ وانثروا الآمالَ إليه الْمآلُ؛ وأتساءل: متى ننظرُ في الكتبِ بقدر نظرنا في المرآة؟ متى نساوي بينَ المعارفِ والمعالفِ؟ متى نفْحصُ الكتابَ نصف اهتمامنا بالثِّيابِ؟ ترى الرجالَ كالنخلِ وما يدريكَ ما الدخلُ! يا مريمُ ...ولكم في القراءةِ حياة!

وللهِ درُّه عمر بن عبد العزيز ﷺ حين يقول: واللهِ إني لأشتري الحديثَ من عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود بألف دينار من بيت مال المسلمين، فقيل له: يا أمير المؤمنين، أتقول هذا مع تَحرَّيكَ وشدةِ تَحفُّظكَ؟ فقال: واللهِ إني لأعودَ برأيه ونُصْحه على بيت مال المسلمين بألوف الدنانير؛ يرحمك الله يا عمر، هذا حين يوسَّد الأمر لأهله، وحين يُقدم الحفيظ العليم، والآن شعارنا... إكرام الميت حرقه، فلا أمانة ولا علم إلا من رحم.

همسة... وتعلمتُ أنه...لا تبلغ الكلمةُ شغافَ القلوبِ إلا إذا كانت رقيقةً وصافيةً، تماماً مثل طائرةِ الورقِ؛ لا ترتفع إلا حين يرقُّ ورقُها؛ وتصفو أجواؤها، ولما كانت علاماتُ إعرابِ الكلمة الرفع والنصب والخفض والجزم، رأيتُ قلوبَ العبادِ حالُها كحالِ الكلمةِ، فرفعُ القلوبِ أن ترتفعَ عن الدنيا وأدرانِها كحالِ الزاهد، أو ترتفعَ عن الشهواتِ والأهـواءِ كحالِ العابد، وقد يَرفع صـاحبُ القلبِ قلبَه فيبدو مُنكسراً لخالقه، وقد يكونُ رفـعُ القلبِ برفعِ اليد عن البطشِ والحرامِ، أو رفعُه بلسانِ المحتـاجِ الذي يلحُّ بالدعاءِ والحاجةِ من مولاه؛ أما نصبُ القلوبِ فلا يتم إلا بانتصابِ البدنِ في محرابِ الكونِ وعَالَمِ الملكِ، ثم بتأملِ النفس في الملكوتِ، وانتصـابِ الروحِ ومعايشتها لعالم الغيبِ وكأنه مشهودٌ، ففي داخلِ المؤمن مئذنةٌ يصعدُ إليها ويرددُ آذانَ الحبِّ بينه وبين خالقه! وخفضُ القلوبِ في بذلها في ساحاتِ الجهاد، أو ملازمة الخشوع ومعايشة القشعريرة الإيمانية التي هي بمثابة خميرة الوجل في أعماقِ النفس،

فيبدو صاحبُها كطيرٍ مهيضِ الجناح، أو كرجلٍ هيئته كهيئةِ من يُساقُ إلى الذبحِ بعد دقائقَ؛ أما جزمُ القلوبِ فيكونُ بوأدِ أماني الدنيا، وقطعِ دروبِ إبليس وجنده عن بُعدٍ، واليأس مما في أيدي الناس ولو ذاقت الروحُ حتفها؛ ثمَّ يأتي حظُّ (السكونِ) والأنس بالله، فتسكنُ النفس لخالقها ومع خالقها؛ وقال وهب بن منبه: المؤمنُ يخالِطُ ليعلَمَ، و يسكتُ ليسلَمَ و يتكلَّمُ ليُفهِمَ و يخلو ليغنَمَ؛ الله الله!!! ومن يفعل هذه الأربعة؟

حولَ الحبِّ نُدندنُ

وكنتُ في حبِّها كـ الأعْمى الذي لا يُفتنه جَمالُ المنظرِ وسِحرُ العيونِ وقوامةُ القدِّ، إنما يُفتنه وقعُ الحروفِ على الشفاةِ، ورائحتُها التي تداوي الأفئدةَ المكلومة، بل أخالني في هواها كـ الجائعِ الذي تَثِبُّ أحشاؤه شوقاً لفتاتِ بعضِ الكلماتِ، وثريدِ قليلٍ من الجُملِ، ويسيلُ لعابي على فضلِ حديثها أو وعدٍ بـتتمةٍ، وإذا ألقتْ تحيتَها يغتالُ الحياءُ لساني، وتلفُّ حُمرةُ الخجلِ كياني، وأتصببُ عرقاً وأنتفضُ، ولا أهمسُ بـبِنتِ شفةٍ؛ وأكتفي بأن يعانقَ ظلِّي حياءها، ويلثم خيالي نقابها.

وعجبتُ منكَ يا قلبُ! أراكَ حينَ تنتظرُ المحبوبَ تلسعُكَ عقاربُ اللهفةِ وحياتُ الشوقِ، وتتراقص طرباً كـ بندولِ ساعةٍ لا يحيدُ عن قِبلته، وكأن الذي يقيمُ أودكَ الدقائقُ وليس الدم، ومن زحمةِ الثواني داخلكَ يُخيلُ إليَّ أنكَ تُغادرني وتشقُّ زحامَ الناسِ لتهنأ بمن تحبُّ قَبلي... فرفقاً بي!... إنها ليلى وما أدراكَ ما ليلى!

ترددتُ كثيرا في الكتابة عن الحبِّ، لكن... كأني سمعتُ بهمسٍ: كيف تنسى أهمَ المشاعر وأرقَّ العواطف؟ يا هذا! أما تعلم أنه الشعورُ الذي خفقتْ له مجامعُ القلوبِ؟ وهو الحنينُ الذي يزلزل مكامنَ الوجدان، وهو الشوق الذي أطلق قرائح الشعراء، وهو الهوى الذي سُكبتْ لأجله محابر الأدباء سكباً، فـكريمُ النفس يألفه، ومشاعر الأنبياء لم تخلُ منه، وقلوب الأتقياء والأصفياء والقادة والمصلحين انصهرتْ في بوتقته... لذا كان لزاماً علينا أن ندندن حوله ولو من مكانٍ قصيٍّ، وأتمنى أن أسمع من ابنتي أولَ خفقان قلبها منها، وليس من غيرها، فالحبُّ الذي ينشأ في النور حتماً سينمو ولا نخشاه، بل نضعه في ضوابط الشرع والدين دون خجلٍ، علينا أن نفرق بين الحبِّ وطيشه ونزواته العابرة.

والحبُّ في حقيقته عاطفةٌ إنسانية تتمركز حول شخصٍ ما، أو شيءٍ أو مكانٍ ما، أو حتى مجرد فكرة نبيلة أو قِيمة خُلقية، وتُسمى هذه العاطفة باسم مركزها، فما بين حبِّ الله وهو أسمى أنواعِ الحبِّ وحبِّ الذاتِ أو الأثرة والأنانية... نجد أشكالاً عديدة ومسمياتٍ للحبِّ لا حصر لها، وهو أيضاً حاجة نفْسية ونفِيسة يعيشها المحبُّ وتحتاج إلى إشباعٍ واستمرارية.

ويقول النبي ـ ﷺ ـ:" إن الله قال: من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبُّ إليَّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه"[1]، فدلالةُ حبِّ العبد لربِّه في طاعته وبذل المزيد من وسائل التقرب بأقوالٍ وأفعالٍ ونوافلَ من جنس ما فرض، واللهُ يحبُّ العبد فتكون نتائجه جليةً في سمعه وبصره ويده ورجله فهذا هو" العبد الرباني"، فمَن يدَّعي الحبَّ عليه أن يُعطي فوق الواجب، لأن النوافلَ زيادةٌ عن الواجب، وحبُّ الإنسان لخالقه هو الحبُّ الحقيقي ويتفرع عنه ومنه كلُّ أنواع الحبِّ التي تنسجم مع الفطرة السوية، وحبُّ اللهِ هو الأصل الذي عنه ومنه تنبثق المشاعر صادقة كشجرة طيبة الثمار، تؤتي أكلها كلَّ حين، وتظهر جلية في القلب واللسان وكافة الجوارح، ففي معيةِ الله تطمئنُ القلوب، وبذكر الله يكون اللسانُ رطباً، والجوارح تعمل في عبادته.

ولقد بين الله عز وجلَّ في كتابه أن المؤمنين يحبونه، وأنه ـ عز وجل ـ يحبهم فيقول: "قُلْ إن كنتم تحبونَ اللهَ فاتبعوني يُحببكم اللهُ ويغفر لكم ذنوبكم والله غفورٌ رحيمٌ"، أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم وهو أعظم من الأول، كما قال بعضُ العلماء: ليس الشأن أن تُحِبَّ، إنما الشأنُ أن تُحَبَّ، وقال الحسنُ البصري: زعم قومٌ أنهم يحبون اللهَ فابتلاهم الله بهذه الآية؛ وهل هناك قوم يحبهم الله وهم لا يحبونه؟ إن هذا لا يحدث مع الله، وإن كان يحدث أحياناً في الحياة البشرية مثلما قال الشاعر[2]:

أنتَ الحبيبُ ولكني أعوذ به .... من أن أكونَ حبيباً غير محبوب

وقد يأخذ الحبُّ شكلاً آخر كحبِّ القيم النبيلة والمبادئ السامية والأفكار المبدعة والمثل العليا، أما حبُّ الإعزاز: ويقصد به حب شخص ما، بحيث يكون عنده عزيزاً، فيحرص عليه

[1] - (البخاري عن أبي هريرة)

[2] ـ المتنبي

ويتودد له ويرجو رضاه، ويبذل النصح له ويتمنى نفعه ويخشى مضرته، وهذا نراه في حُبِّ الأب والإخوة والأصدقاء والمعلم والعلماء.

... وفي حديث الثلاثة الذين سدَّتْ الصخرةُ عليهم الكهفَ يتجلى مشهد الإنسانية في أطوارها الثلاثة، ومن بينها وأقواها وأعنفها تجد مشهدَ الحبِّ وتجسيده في صورةٍ حركيةٍ حيةٍ، فالإنسانية الحقَّةُ لا تعرف إلا الفضيلة، ولا تتكلم بغير لسانها، وما بين الحركة والإيقاع المدهش في الحديث تجد السكونَ في النفس وكأنه يتكلم قائلاً: هذا هو الأصل فقيسوا عليه، صححوا ما غلط من حياتكم على هذه النماذج؛ واعلموا أن قيمة الإنسان تنعدم ولن تكون حين يُلبي لَذَّاتِهِ وغرائزه ويقبع داخل شهواته، وتنعدم هذه القيمة وتتلاشى حين يبحثُ عن أهوائه وأغراضه فيحققها على حسابِ الآخر مهما قلَّت قيمة هذا الآخر، بل تتحقق قيمة المرء حين يسمو على حقائقه المكذوبة، وحين يتعالى على خيالاته المريضة، وترتفع قيمته حين يقتلُ الأثرة ويتحلى بالإيثار.

فإن كانت الأثرة هي الأنانية الممقوتة، فإن الإيثار هو ذاته الأنانية الممدوحة، فالإيثار هو الرحمة عينها فنسميها برّاً حين نرحم الكبار الذين أفنوا حياتهم لأجلنا، والحبُّ هو الرحمة التي تقهر الشهوة وتميتُ الهوى فنثني عليها ونسميها العِفة، والحبُّ هو عينُ الرحمة التي تقتل الطمعَ والجشع فنسميها أمانة، ومهما قلَّبت الحديث على أي نحوٍ تجده يضبط حواس وجوارح المرء، ويقرر توازن واتساق ملكات النفس الثلاث الغالبة.

فما بين (الراحة والشهوة والبطش) ينبهنا الحديثُ لضبط (السعي والغريزة والتملك)، وحقيقٌ بمن ينشأ على برِّ والديه أن يعفَّ ويتعففَ، فكأن البرَّ والعفةَ وجهان لعملةٍ واحدة، ولا انفصام لهذا عن تلك؛ ومن كان رحيماً بوالديه ومتعففاً أولى به أن يكون أميناً مع الغير؛ ومن يعش مع الحديث وإيقاعه النفسي والإنساني يجد الحبَّ يتدرج من القريبِ إلى الأقربِ ثم الأكثر قرباً، ثم يطفو على الإنسانية جميعاً؛ ففي طور الطفولة ينشأ حبُّ الوالدين كحبٍّ قريبٍ لصيقٍ غريزيٍّ فطريٍّ بلا تكلف، ثم في الشباب والبحث عن إثبات الذاتِ ينشأ الحبُّ الأقربُ، فما بين العاطفةِ والاحتياجِ إلى الرغبةِ والشوقِ ثم إلى العقلِ والضبطِ تتجسد ملامحُ الإنسانية في ثوبها الجميل، ومن تربى على أدبِ البرِّ والطاعة لوالديه تراه ذا طبعٍ كريم، ومن

تعففَ في شبابه وعفَّ تجده ذا قلبٍ كريم، ومن يرحم الإنسانَ عامة تراهُ ذا خلقٍ كريم، وما بين الطبع الكريم والقلب الكريم والخلق الكريم تظهر فصولُ الإنسانية على أحسن ما تكون.

وأجمل هذه الفصول على الإطلاق وأكثرها تأثيراً في حياة المرء وأشدها حنيناً لدى الجميع هو فصل إثبات الذات والبحث عن الحبِّ والمحبوب، وتبقى أهمية أن يكونَ العمل كله لوجه الله خالصاً، فالإخلاص سبب النجاةِ، وهو الذي أزاح الصخرة عن فم الكهف، فجميعنا يتعامل مع أهله ورحمه، ويحبُّ ويتمنى أن يُحبَّ، ويتعامل في المال مع الغير قلَّ أو كثر، لكن من كانت نيته للهِ وعمله خالصاً لوجهه يتيقن أن كلَّ صخور الدنيا التي ستواجهه... وحتماً سيُواجه بالكثير ستزول بإخلاصه وإيثاره وحبِّه لغيره، فأصلُ الدين الذي يرحم الجماد والنبات والحيوان أولى به أن ينشر هذه الرحمة على الوالدين، وينثرها على من نحبُّ، ويسكبها على من نتعامل معهم، ولا يقبل مِنَّا الدينُ بغير تلك الرحمة، ولن يُقتلُ الشرُّ في حياتنا، ولن تزولَ الجريمة من أيامنا إلا بثالوثِ (البر والعفة والأمانة)، واعلمي يقيناً أن كلَّ ثمرةٍ لم تهبْ حلاوتها لغيرها هلكت.

نعم ... الحب فطرة إنسانية، وحاجة وجدانية ونفسية، والعواطف والمشاعر هي التي تجعل حياتنا سعيدة مشرقة، فبالحبَّ تُغفر الزلاتُ، وتُقالُ العثراتُ، وتُستمطر الرحمات؛ ويوم يغيبُ الحبُّ تضيق النفوس، وتتولد المشاكل والخصوم، والحياة الزوجية المبنية على الحبِّ والتفاهم بين الزوجين يُكتب لها النجاح والسعادة والاستمرارية، وإن فقدنا الحبَّ كمشاعرَ وعواطف وهيام فلا نرضى بغير المودة والرحمة بديلاً، ولكن يبقى السؤال: متى يكون هذا الحب؟ وكيف يبدأ ويزدهر بصورة عفيفة يقبلها العرف والدين؟

إن الحبَّ لا يتكون داخلنا فجأة، أو بمجرد نظرة نجد أنفسنا فيه غرقى!! إن هذا النوع من الإعجاب الرومانسي الحالم الهش إن وُجدَ ثم اصطدم بواقع الحياة، وتمَّ الزواج على أساسه فقط ينتهي غالباً بالإخفاق إن لم يكن حتماً، أما الحبُّ الذي يبدأ تدريجياً بالميل العاطفي ثم الودِّ والقبول وفق أسباب منطقية، ويرتقى تدريجياً بالعشرة الزوجية فهو "حبٌّ واقعي" تجد فيه نفسك تحبُّ زوجتك بجميع ما فيها من فضائل، ومتقبلاً وراضياً بمثالبها وهي كذلك، وأنجح زواج هو الذي يقوم على التكافؤ أولا ثم الحبِّ ثانياً، لأن الحبَّ الرومانسي المجرد يذهب سدى بعد فترة قصيرة من الزواج، ويحلُّ محله نوعٌ آخر من الحبِّ أكثر هدوءًا وأقل سخونة،

هو حبٌّ من نوع جديد مبنيٌّ على ما يحمله كلُّ طرف تجاه الآخر من احترام وألفة ومودة وحسن معاشرة وشعور بالتكافؤ والتآزر.

وعلى الأرجح أن اللَّذيْن يتزوجان نتيجة الميل العاطفي — ويسمونه الحبَّ – لا يبصران صفاتٍ كثيرة يجب أن يعرفها كلاهما عن الآخر، إنهما ينظران بعين العاطفة وحدها، وعين العاطفة لا ترى كلَّ شيءٍ، فإذا ما تمَّ الزواج وهدأت العاطفة المتأججة تيقظتْ عيونٌ أخرى غير التي أحبت، وأضحى المحبُّ في حالة غير التي كانت زمان الصبِّ والهوى، فحقيقة الأمر حين تكون في حالة حبٍّ فإن العالَم كله – بالنسبة إليك — يدور في فلكِ من تحب، ويأتي الزواج ليثبت عكس ذلك، ويهدم أغلبَ تصوراتك، بعد أن تكتشف أن هناك عوالمَ أخرى كان لابد أن تنتبه لوجودها، إنها عوالمُ المفاهيم والقيم والعادات، وراحة القلب والعقل لا يقلان عن راحة العين.

ويعطينا الإمام أحمد بن حنبل درساً بالغ العظة ليعلم الجميع أنه ليستْ العينُ فقط هي التي تحكمُ أي الشيئين أفضل؟ فللعقلِ رؤية وللقلبِ رؤية، وقد اختار عند زواجه العاقلةَ العوراءَ وترك أختها الجميلة؛ وجلُّ مشاكلنا أن زيجاتنا لا تتعدى أنصافَ الزيجاتِ على أحسن تقدير، فراحةُ العينِ ثلثُ الصوابِ؛ وراحةُ القلبِ والعقلِ الثلثان.

ومع الميل الشديد لا يستطيع الشاب أو الفتاة أن يُقوِّمَ مختلفَ جوانب شخصية الآخر، ولا يستطيع أن يتعامل معه بعقلانية، لأنه دائماً يجد التبريرات لما يفعله شريكه، وفي أحسن الأحوال يأملُ أنَّ كلَّ شيءٍ سوف يتغير بعد الزواج، ولكن الواقعَ أثبتَ أن ذلك غير صحيح، فكلاهما يتقبل الاستحسان من الآخر، ولا يمكن أن يتحملَ النقد أو العتاب بعد الزواج حول وضعٍ معين، يعرف يقيناً أنه لم يضايقه من قبل، والدليل أنه لم يعترض عليه، ولم يضع ملاحظة ما حوله، ودعنا نعلنها صراحةً ... حين يسيطر الحبُّ في العلاقة، فإن المرءَ لا يرى في شريكه الحقائق التي يراها مَن حوله، بل ينظر عبر أحلامه وفي إطار من المثاليات، ولذلك فهو يتجنب الانتقادات، ويتجنب مجرد إثارة أي موضوع يشعر أنه لا يروق له، بل نجده يركن إلى ما يحقق عواطفه ويرضيها فقط، وهكذا يستمر الحبُّ سطحياً لا يرى الواحد في الآخر إلا أحلامه وأمانيه المحدودة، فلا يستطيع – من ثم– أن يفكر فيه وفي تصرفاته بعقلانية حقيقية أو حيادية.

وحين يجمع الحبُّ الأشياءَ الأكثر تناقضاً نجد لسانَ حالنا يعلنها...أن الحبَّ بالفعل أعمى! سواء كان حبُّ الأم الفطري لطفلها الوليد أو الولد لوالده، فالأم تقبل ابنها على أي نحو جاء، وكذلك الحبيب يرى غالباً حتى نقائص حبيبته مزايا! فكأن العاطفة تمنع الإنسان من اكتشاف العيوب، وقديماً كانت العرب في الجاهلية إذا أحبَّ رجلٌ امرأةً وعشقها، فإنه لا يتزوجها في الغالب، حتى لا يخفت وهجُ ذلك الحب أو يزول بالكلية، وعندما جاء الإسلام عكس هذا المفهوم تماماً، فحثَّ كلَّ متحابيْن على ضرورة الزواج، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "ما رأيت للمتحابين مثل النكاح "[1]، وقوام البيت المودة والرحمة، وقيل في معناهما..."المودة وهي المحبة، والرحمة وهي الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها أو رحمة بها أو للألفة بينهما وغير ذلك" وهذا بلا شك معنى أشمل وأرقى وأسمى بكثير من حبِّ تلك الصور الخيالية التي تصورها لنا الأفلام والروايات؛ ولولا أن الله يهب لنا الأبناء لخيم الطلاق على حياتنا إلا من رحم، فواقعنا يشهد أنَّ أكثر ما يقيم أود العلاقات هم صغارنا.

وما أجمل الحب حين يكون أساساً في الزواج ... الحب الذي يعني جاذبية متبادلة بين شخصين، ولهذه الجاذبية كيانها الخاص في حياتهما، فالحبُّ كيمياءُ القلوب التي لا تُفسر، وليس مجرد رغبة جنسية فقط، فمثل هذه الرغبة موجودة عند جميع البشر، ولكنها لا تكون حبّاً إلا إذا تمحورت في شخصٍ معين مميز في أعيننا عن بقية الناس، وفارق كبير بين أن تحبَّ اللذة من أجل الأنثى أو تحبَّ الأنثى من أجل اللذة؛ وأضيف إليها صفات الوفاء والولاء والارتباط، والإيمان العميق والاحترام المبني على الثقة، وهذا لا يعني مطلقاً أننا نجعلُ من (الحبِّ) أساساً وحيداً للزواج الناجح رغم الحقيقة الموجعة التي يقرُّ بها الواقع... إن أغلب البيوت لا تُبنى على الحبِّ؛ وتبقى رغبة الوالدين ورضاهما ومشورتهما من أنفع الأمور للفتيات والفتيان، ولها أهميتها في كل زواج متين الأواصر، فقد يبدي الوالدان ملاحظاتٍ قيّمةٍ لا يستطيع الشابُ أن يراها، لما يتحليان به من عمق المعرفة بالحياة ورصيد من التجارب والخبرة، ورؤية المستقبل يفتقدها الشباب في مقتبل العمر.

نعم يا بنية... الحبُّ قرينُ الإبداع، إنه صانعُ المعجزات؛ إن كان لبعض الناس حاسةٌ سادسةٌ كما يدعون، فأولي للمحبين أن تكون لهم حاسةٌ سادسة وسابعة وثامنة وأكثر، فالحبُّ هو

---

[1] – (رواه ابن ماجه وصححه الألباني)

صائغ الحياة، هو إكسيرها، هو ذاته ماؤها، هو الذي يتجاوز الزمان ... يتجاوز المكان، له ملكوتٌ خاص، له قانون خاص، واعلمي أنه ليس من المهم أن نعمل أكثر، ولكن من المهم أيضاً أن نفعلَ ذلك بحبّ ورغبةٍ، لأننا عندما نعمل بجدٍ نؤدي العملَ بطريقةٍ جيدةٍ، وعندما نعمل بحبٍ نؤدي نفسَ العمل بطريقةٍ رائعة.

ومن لبابِ الدين أن يحاول كلٌّ منا أن يقتلَ جهلاً، ويسدَّ جوعاً، ويمسحَ دمعةً، ويربت على ظهر يتيمٍ أو يعين أرملة، فالعملُ الصَّالحُ أطهرُ صلاةٍ، وبالنية يتحول العملُ من عادةٍ إلى عبادة، فلنعرف الدين الحقَّ، فالدِّينُ الحقُّ هوَ كشفُ الحياةِ المقدَّسةِ وتحقيقها في مناحي الحياةِ، الدِّينُ القويمُ يبني صروحَ سلامٍ وحُريةٍ في النفوسِ البشريةِ المهددةِ بالآلامِ، ويعالج كلَّ أوجاع الروح، الدِّينُ العظيمُ يُحقِّق قداسةَ الحياةِ في الأجسادِ الخاضعةِ للأمراضِ والموتِ، ووحيُ اللهِ يسكنُ في روحِ الإنسانِ قبلَ ولادتهِ، وهذا الوحيُ يُخاطبُ الروحَ فيدفعُ الإنسانَ إلى تسلق قِممِ الفضيلةِ.

أما الحبُّ الحقيقي فقيل عنه:" كن من أولياء الله وأحبائه لتسعد، إن أسعد السعداء ذاك الذي جعل هدفه الأسمى وغايته المنشودة حبَّ الله عز وجل"، ومجنون ليلى قتله حبُّ امرأة، وقارون أهلكه حبُّ المال، وفرعون حبُّ المنصب، وقتل حمزة وجعفر وحنظلة حبهم لله ولرسوله، فيا لبعد ما بين الفريقين!

إنما يتعثر من لم يُخلص، يقول ابن الجوزي رحمه الله: "واعلم أن الطريق الموصلة إلى الحقّ سبحانه وتعالى ليست مما يُقطع بالأقدام، وإنما يُقطع بالقلوب، والشهوات العاجلة قُطاع الطريق، والسبيل كالليل المدلهم، غير أن عينَ الموفق بصرُ فرسٍ، لأنه يرى في الظلمة كما يرى في الضوء، والصدقُ في الطلب منارٌ، أين وُجد يدلُّ على الجادة، وإنما يتعثر من لم يخلص".

أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أنَّ الحُبَّ مُنْكتِمٌ ... ما بَيْنَ مُنْسَجِمٍ منهُ ومضطَرِمِ
لولاَ الهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعاً عَلَى طَلَلٍ ... ولا أرقتَ لذكرِ البانِ والعَلَمِ
فكيفَ تُنْكِرُ حُبَّا بعدَ ما شَهِدَتْ .... بهِ عليكَ عدولُ الدَّمْعِ والسَّقَمِ[1]

واعلمي يا بنية أنَّ الحبَّ في الإسلام هو ما يبني ويدوم، ولا نستحيي من ظهوره، في النور يولدُ، وبالضياءِ يُروى، وهو كعاطفةٍ إنسانية سامية تملأ علينا حياتنا سعادة وطهارة وفضيلة

---

[1] - (البوصيري)

لتسمو معها مشاعرنا فتعانق عنان السماء، وتبتعد بنا عن الدونية والتسفل، وتلجُّ بنا عالم المثل، وإن لم يكن الحبُّ بهذا المفهوم أصبح مرضاً فتاكاً، ينخر في كيان المجتمع ويهدم القيم والمعاني الراقية، وتتفكك معه وشائج جمة، ويضيع الحقُّ، وتنتشر الرذيلة، فلابد من ضوابطَ وأُطر شرعية ومناخات سوية يظهر من خلالها الحبُّ ونمارس مشاعرنا دون خوف أو عقاب أو خجلٍ، فكم من بيوتٍ هُدمت، وأطفال شردت، وعائلات طالها الذل والمهانة جراء نزوات شيطانية عابرة تحت اسم الحبِّ وهو منها براء؛ قال الشَّعْبِي رحمه الله: " إنما سُمي الهوى لأنه يهوي بصاحبه"[1]، فالحبُّ هو ما يبني ويدوم ويرفع.

وإياكم ثم إياكم من عاطفة تنشأ في الظلام، فاستعيذي بالله منها، وإن سلمنا أنفسنا للغة الأغاني والأفلام وما شابهما فلن نسلم من العطب، وإن لم يصبنا الأذى أصابنا بلله، ولن نقول ما قاله الشاعر[2]:

الحبُّ في الأرض بعضٌ من تخيلنا....إن لم نجده على الأرض لاخترعناه

فهذه خيالات مرضى، وأوهام مغيبي العقول، ونضح مروجي الشهوات؛ فلتهنأ أنفسنا بقسمنا في الدنيا، ونشغل أنفسنا بالحقِّ والطاعة وحظ الآخرة، ساعتها سيعوضنا ربنا لذة القرب منه، وسننظر لمن يتغنون بالعواطف نظرة مختلفة، وَلَو قيلَ لِلمجَنونِ: لَيلى وَوَصلها تُريدُ أَم الدُنيا وَما في طواياها؟ لَقالَ: غُبارٌ مِن تُرابِ دِيارِها أَحبُّ إِلى نَفسي وَأَشفى لِرؤياها؛ وقالت أعرابيةٌ: "مسكين العاشق؛ كلُّ شيءٍ عدوه، هبوبُ الريح تقلقه، ولمعانُ البرق يؤرقه، وآثار الديار تحرقه، واللوم يؤلمه، والتذكير يُسقمه، إذا دنا الليل منه هرب النوم عنه، ولقد تداوى بالقرب والبعد فما أنجع فيه دواء".

ولله در القائل: بكلٍّ تداوينا فلم يشفي ما بنا....على أن قربَ الدار خير من البعد

هذا حال العاشق حين يعشق حبيبة واحدة، فما بالنا بمن يعشق الوطنَ وله في كلِّ شبر حبيب وحبيبه! كم يؤلمنا حبك أيها الوطن! أترانا يعود الوصل بيننا وعهد الحب مثلما كانا، أم نستجدي عيوناً نبكي بها على حالك وحالنا؟

ولنتوقف ملياً فيما جاء في فتاوى عمر بن الخطاب ﷺ: "إن أغلبَ البيوت لا تُبنى على الحبِّ"، فلو كان الحبُّ شرطاً لتكوين أسرة، ما رأينا أسرة إلا فيما ندر، وأختم كلامي لكِ يا

[1] - (سنن الدارمي 120/1) رقم(395)

[2] - نزار قباني

مريمُ بأنَّ للمادةِ قوانينُ وتبعاتٌ لا نتجاوزها مادمنا أحياء، أما القلبُ والروحُ فلا سلطانَ عليهما، ولا يحاسبُ ربي على خياناتِ الروحِ والقلبِ لأنهما من نفخته هو، فهما لا يعرفا الإثمَ ولا ينبتا في الأرضِ الفسادَ ما احتفظا بعبق النفخة وتحليا بسلامةِ الفطرة، فهما دوماً يرتقيان بصاحبهما، ويتحسسُ من خلالهما كمالاً ينشده، وأعتقدُ إن لم أكن جازماً أن كلَّ المخلوقاتِ يتزوجون في كل يومٍ وليلة حسب ميل قلوبهم وهدي أرواحهم، فهل معنى ذلك أن نتهمَ الجميعَ بالخيانة؟ ثم هذا الذي يتزوجُ اثنتين هل له سلطانٌ وقدرةٌ على قِسمةِ قلبه إلى أنصافٍ وأرباع وأثلاث؟

والحياة كلها لا تسكن ولا تهيج إلا بـ كلمةٍ واحدة هي الحبُّ، ولا ينتظم عقد الكون من حولك إلا بقانونِ الحبِّ؟ فلا تسمعي لأهل العلم فإنهم لا يفهمون، يحشرون عقولَ الناس بقوانينَ ونظرياتٍ ومسمياتٍ ما أنزل الله بها من سلطان، لكنها كلها قوانين للحبِّ في صوره وأشكاله، فكلُّ قانون أو نظرية تجدين فيها (البساطة والجمال وروعة التنسيق وتربط الأشياء الأشد اختلافاً)، أليس هذا هو نفسه معنى الحب؟ هل سمعتم بأن هناك حبّاً لا يتحلى ببساطة دخوله القلب؟ وجماله يظهرُ وينطق ويفضح صاحبه، ويجعله يعيد تنسيقَ ذاته من جديد، وأجملُ قصص الحب هي التي ربطت بين قلبين شديدي الاختلاف، فقانون الجاذبية يصورُ حالاتِ المحبِّ وحبيبه، فليست الأرض تجذبُ الأشياء نحوها، لكنَّ الأرض تعشق أشياءَ فتجذبها نحوها؛ وقانون النسبية... وأن لكلِّ فعلٍ رد فعل مساوٍ له في المقدار ومضاد له في الاتجاه، هو بعينه شرحٌ مبسطٌ لحالة حبٍّ حين الوصلِ وحين الجفاء، حتى المد والجزر يمثل في حقيقته إقبال الحبيبِ وإدباره، وكلُّ التفاعلات الكيميائية والإنسانية مردها الحب.

يا بنية... فقيرٌ مَن لا يجدُ مَا يُقيمُ أودَهُ، ولا يجدُ ما يسدُّ جوعَهُ وعويلَ بطنِه، لكن... الأشد فقراً مَن لا يجدُ غذاءَ عواطفِه؛ ولا ينالُ وجْبَتَهُ مِن الفكرِ، فقد تُسْكِتُ أيُّ لقيماتٍ صريخَ البطنِ، لكن أنين الشعور لا يُسْكنه إلا شخصٌ بعينِه، ولا يثري الفكرَ والقلبَ إلا الفضيلةُ وصالحُ الأعمالِ، وشتان الفارق بين فقر الجيوبِ وإملاقِ القلوب، وفقيرُ البطن قِبلتُه كل الناس، لكن فقير القلب كعبته تقطنُها واحدةٌ لا غير.

قانون (الذي قدر فهدى) اللهُ قدرَ الحبَّ فهدى كل مخلوقٍ وقانونُ الكون واحدٌ؛ وهو أن انفراطَ عقد الكون يوم القيامة ما هو إلا تباعد حرفي ليحبَّ على سجيته، ولا أحسب

الحبِّ من أسرار الروح وعالم الغيب، وللمحبِ سموٌّ ورقيٌّ يحولُ (الحاء عن الباء)، فأسرارُ إنسان النور، وكأنه يقذف فيه بقبسٍ من قبساتِ النبوة تظهر في رقةِ قلوب إنسانَ الطينِ إلى العاشقين؛ فبالحبِّ نحيا بإيجابيةٍ بعيداً عن كدر الحياة، فلا تندمي على لحظاتٍ عشتها بحبٍّ، حتى لو صارت ذكرى تؤلمكِ، فإن جفَّتِ الزهرة وضاع عبيرها ولم يبقَ منها غير الأشواك، فلا تنسِ أنها منحتكِ يوماً عطراً جميلاً أسعدك وبعضَ الأشواق، والحبُّ في غير إطاره الصحيح وسيظلُّ الحبُّ فضيلةَ الفضائلِ، فـبه كظمآن يشربُ من البحر لا يزيده البحرُ إلا عطشا؛ تصبحُ نفوسُنا أفضل، وخلجاتنا أرقى، وأرواحنا أجمل، وخيالاتنا أسمى، ونحمي به عقولنا من الابتذال، وجوارحنا من التبعثر والضياع؛ وإنْ لم نغرس شتلاتِ الحبِّ بفؤادنا استعرت الحربُ بيننا، ولا أرى الرجلَ رجلاً إلا ومعه نصفه الآخر الذي به يعتدلُ، ولا أرى المرأةَ إلا نصفاً مائلاً حتى تعثرَ على رجلِ قلبها، فتلقي عصاها وتتوكأ عليه.

همسة... عجبتُ لمن قِيلَ فيه خيرٌ وليس فيه كيف يفرح؟ وعجبتُ لمن قِيلَ فيه شرٌّ وليس فيه كيف يغضب؟ وعجبتُ أكثر ممن أحبَّ نفسه على اليقينِ وأبْغضَ غيره على الشكِّ؛ وحار فكري.. نستعينُ على ترميم مشاعرنا بكلِّ شيءٍ إلا الحب! يا أنا... متى غادر البيتَ الحبُّ هيهات أن يعود، فإن يكن فلا أقل من الاحترام والكرامة؛ ويُخيلُ إليَّ أنَّ الحبَّ والجنونَ يولدون من رَحِمٍ واحدةٍ وإن تباعدَ الأبوان، فرأيُ العاشق في كلِّ النساءِ هو نفسه رأيُ المجنونِ في جلِّ الناس، فكلاهما واهي الحجةِ ومردودٌ كلامه، والمجنونُ فقدَ الإحساسَ بالزمن، فالماضي والحاضرُ والمستقبلُ عنده سواءٌ، والعاشقُ لا يأبهُ بما مضى ولا ما هو آتٍ طالما الحبيبُ هو الحبيبُ.

الخطوبة والمهر

ما من حياةٍ سعيدةٍ ... متلفعةٍ بثوبِ الإلتزامِ والنظامِ إلا وتكون في بقعةٍ وبيئةٍ ساعدت على تمامِ ذلك المظهر، فالالتزامُ وصاحبه كـ عقدٍ جميل في جِيد إمرأةٍ جميلة، لا تدري أيهما يضيفُ جمالا لصاحبه؛ وعَدَّ الإسلامُ أن المرأة كلما كان مهرها قليلاً كان خيرها كثيراً، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:" إنَّ أعظم النكاح بركة أيسره مؤونة"[1]، وعنها أيضا قالت: قال رسول الله ﷺ:" يُمنُ المرأة تيسير خطبتها وتيسير صداقها"[2]؛ فتقيمُ المرءِ بمالِه دليل على فساد فطرة مَن يقيّم؛ فالأصلُ أخلاق الرجل وما ينتجه فكره؛ وما تصنعه ذاته من مكارم الأخلاق، فالدنيا لا تصلح إلا بمكارمها، وإن كان لمعيار المال قيمة فهو أقلها وأدناها، وفي إشارة" ولو خاتماً من حديد" يعني نفي المادية عن الزواج، وتغليب القيم الروحية، فالرجولة بعظمتها وقوتها وحسن طباعها ولن يجزيء منها القليل، أما المال فقليله يكفي إن لم يكن يزيد، ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة والقدوة.

حُكِيَ أن سُليمان بن داود – عليهما السلام – مرَّ بعُصفورٍ يدورُ حول عُصفورةٍ، فقال لأصحابه: هل تدرون ما يقولُ لها؟ قالوا: لا، يا نبي الله، قال:" إنه يخطُبُها لنفسه، ويقول لها: زوجيني نفسك، أُسْكنكِ أيَّ غُرفِ دمشق شِئتِ؛ قال سليمان:"كذبَ العُصفور، فإنَّ غُرفَ دمشق مبنية بالصخور، لا يقدر أن يُسكنها هناك، ولكن كلَّ خاطبٍ كاذبٌ"، أما الآن ... فأعتقد أن العصافير التي كانت تفخر وتتيه بدمشق قديماً تهربُ منها ومن أكنافها، فلله درها دمشق! ولكلِّ واحدةٍ تستدعي ما كذبَ عليها خطيبُها وقتَ الخطوبة أو تجمَّلَ، فيبدو أنها الفترة الحالِمة في حياة الشاب والفتاة، وهي غالباً مصحوبة ببناء القصور في الهواء، ولا مانع من تصور كل إلفٍ لرفيقه بالمشي فوق الماء، فحين تسيطر علينا مشاعرنا ولا نرى إلا بقلوبنا ينزوي العقل مسترخياً خلف ستار الحقيقة، ويكاد يتميَّزُ من غيظِ ما يسمعه، لكن الحمد لله أنها فترة لا تطول، فنفيق على الواقع وآلامه.

والعاقل من خطب لابنته حين يرى من يستحقها ومن يحفظ لها دينها، فهذا نبي الله شعيب يخطب لابنته، وقيل: أن ابنة شعيب من أكثر الناس فراسة حين قالت:" يا أبتِ استأجره إن

---

[1] - (رواه البيهقي في شعب الإيمان)

[2] - (خرجه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وقال الألباني: وهو عندي حسن).

خير من استأجرتَ القوي الأمين"[1]، وهذا ابن المسيب يرفض زواج ابنته من ابن الخليفة وولي عهده ويزوجها لطالبِ علمٍ بدرهمين ... عن المطلب بن أبي وداعة السهمي قال: زَوَّجَ سعيدُ ابن الْمسيب ابنته على درهمين، وللعلم رفض سعيد تزويج ابنته (رباب) للوليد بن عبد الملك بن مروان ابن الخليفة وولي عهده من بعده؛ يفضل أن تسكن ابنته مع فقير ذي دِينٍ على السطوح، ويرفض ابن الخليفة والقصور خشية أن تُفتن في دينها، حين نختار الصلاح على المال والمنصب نسمع مزامير الكون تصدح وتبارك هذا الاختيار، يرحمك الله يا سعيد، من يفعل فعلتك اليوم؟

وفي الحبِّ المكذوب لا سلاح أجدى من المال، وحين نبذلُ المالَ لاستمالةِ القلبِ فأيسر منه القبضُ على الريح، ولا مالنا حفظنا، ولا مَالَ إلينا القلبُ؛ وباذلُ المالِ لأجلِ الحبِّ كمن يضع نقوده في خزينةٍ دون قاعٍ؛ والكثيرُ يشتكي اللذة التي لم يقاربها لأنه لا يملكُ، والقليلُ يشتكي اللذة لكثرةِ تكرارها، فجوهرُ الحياةِ أن لا فرقَ بين مَن يموتُ بفقرِ الدم ومَن يموتُ بالتخمة، فكلاهما موتٌ، ولا فرق بين ألمِ الفقير مِن فقرهِ ومعاناةِ الغنيّ بسببِ غناه، ولو بدلنا هذا مكان ذاكَ بكاملِ ظروفه ما اختار الغنيُّ إلا أن يكون غنيّاً يتأملُ، وما رضي الفقير إلا بفقره يتألمُ، فلكلٍّ لذته وألمه وسعادته، ومن جمالِ العدلِ في الإنسانيةِ أن الفقير عينه مصوبة على جيوبِ الأغنياء، بينما قلوبُ الأغنياءِ تتسولُ راحة بالِ الفقراء، فكأنها قسمة بالسوية، وبؤساً بالمناصفة، والجميع إلا من رضي يعتقد أنها ضيزى، لذا كان في القناعة كل الرضا.

فإن عدمنا الحبَّ فلا أقل من المودة أو الرحمة أوكليهما؛ وهذا عالمنا الجليل يضرب لنا مثالا رائعاً فجزاه الله خيراً...فحين خطبَ رجلٌ ابنة الحسن البصري وبذل لها مائة ألف درهم فقالت أمها: زوِّجْه، فقد أرغبها في الصداقِ وبذل لها ما ترى، فقال الحسنُ: إنَّ رجلاً بذل في صداقِ امرأةٍ مائة ألفٍ لجاهل مغرور يجب أن لا يُرغبَ في مناكحته، ولا يُحرص على مصاهرته، وترك تزويجه وزوَّجها من رجلٍ صالحٍ، حتى زوجة الحسن البصري وهو من هو!! قاست الأمور بالقيمة المادية، وغفلتْ أن تدرك معادن الرجال وأن الدين والصلاح هما أساس الاختيار ومعيار التفضيل، فما بالنا بزوجاتٍ دونَ الحسن وأقل من البصري؟

[1] - (القصص:26)

وأغلبُ الناس يتجمل في الخطوبة ولا يكون على طبيعته، رغم أن الجمال كله في عدم التكلف، وما نتصنعه سرعان ما يزول، ويجب على الخاطب أن يقول عيوبه قبل ميزاته، وأن يُقِرَّ بواقعه دون مواربة، وقد ضربت أمنا أم سلمى ﵂ أروع الأمثلة في ذلك، إنها تخبر النبي ﷺ بكلِّ صراحةٍ بكافة أحوالها، ومَن مِن النساء تتحصل على الزواج من رسول الله ﷺ؟ لكن أم سلمة ﵂ لم يمنعها ذلك من أن تخبره بحقيقة أمرها وعيالها، ولو كانت النتيجة الرفض منه، إلا أننا نرى نساءً إذا جاءهن الخاطب يفرطن في عذب الكلام، ويُبتسم في وجهه وإن لم يكن هذا دأبهم، وليت البسمة تستمر، لكنها أشبه بِطُعْمٍ تهيج له السمكة حتى تقع فريسة؛ وهذا رسول الله ﷺ وهو من هو! وهذه أم سلمة وهي من هي! يكلمها أولاً أنه يريد الزواج منها، فكان الكلام من وراء حجاب، وتلك هي الأخلاق والآداب، فما بال الذين اخترعوا ملةً جديدة؟! يتعرفون أولاً ثم صداقة، واختلاط وعلاقة، وتجربة وحب، وإذا سألتهم: قالوا: حب شريف! ألم يكن رسول الله ﷺ يعرف الحبَّ الشريف حتى عرفتموه للأمة؟! نقلد الغرب في أدرانه ولا نغير من إنجازاته العلمية.

وكان المهرُ أحياناً خاتماً من حديد، أو سورة من القرآن، أو غير ذلك، وانظري إلى صداق أم سليم وتأمليه، وما أجمله من صداق! عن أنس ﵁ قال: خطب أبو طلحة أم سليم قبل إسلامه وهي مسلمة، فقالت: إني آمنت، فإن تابعتني على ديني تزوجتك، قال: فأنا على مثل ما أنت عليه، فتزوجته أم سليم وكان صداقها الإسلام؛ وفي رواية: قالت: ألستَ تعلم أن إلهك الذي تعبد نبتٌ من الأرض؟ قال: بلى؛ قالت: أفلا تستحي؟ تعبد شجرة! إن أسلمتَ فلا أريد منكَ غيره(أي لا أريد منك صداقاً غير الإسلام)، قال: حتى أنظر في أمري، فذهب ثم جاء، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن مُحَمَّداً رسول الله، فقالت: يا أنس (ابنها) زوج أبا طلحة، فزوجها، لقد كسبت أم سليم زوجاً، وكسبت ما هو أعظم من ذلك، هداية رجل على يديها يظلُّ في ميزانها إلى أن تلقى ربها يوم القيامة، إنها تعرف حقّاً معنى الزواج؛ زوج مسلم صالح، وبيت مؤمن ناجح، أذلك خير أم من تبحث عن المظاهر والتكاثر من كل عرض الدنيا على حساب الدين والمبادئ والأخلاق ثم بعد ذلك تشكو من زوجها الأمريْن؟

واعلمي يا بنية... للإسلامِ قناعتُه الفكرية التي مرجعها العقل، وللإيمانِ سعادتُه القلبية التي محلها الفؤاد، لذا فنفسُ المؤمن تُحلِّقُ في آفاق الرضا والأمن ولو كانت حبيسةَ جدران أربعة، ويتحلى بالإيجابية مهما قلَّتْ موارده أو جفَّ نبْعُه، والمؤمن لديه من الذكاء العاطفي ما يجعل ملكاته تتجدد، وعنده من الفراسة ما يسمح لطاقاته أن تتوالد وفق انسجامٍ أشبه بالآلي؛ أو تناغم أقرب للدفع الذاتي، فشعاره "وجعلني مباركاً أينما كنت"، وفي كهفِ الجمعةِ رؤيةُ ما كان مستوراً، وكشفُ ما غابَ عن واقعِ الحياة؛ والفرارُ بالدينِ من تسلطِ الطغاة حكمةٌ؛ " ففروا إلى الله"؛ وكلُّ ما نخافه نفرُّ منه إلا الله نفرُّ إليه؛ وأن السعادة لا تأتي من خارج النفس، إنما السعادة قوامها في ثلاث: العبادة والطاعة، التواضع والبساطة، الزهد في الدنيا، ومن أصبح منكم آمنا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حِيزت له الدنيا، فالدنيا تختزل كلها في بيوتنا وتُقرنُ بالأمان والعافية وقوت اليوم، وقبل كل هذا العافية في الدين.

عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ:" أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت: إني وهبتُ نفسي لك: فقامت طويلاً، فقال رجلٌ يا رسولَ الله، زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة؛ فقال هل عندك من شيء تصدقها؟ فقال: ما عندي إلا إزاري هذا؛ فقال رسول الله ﷺ إزارك إن أعطيتها جلستَ ولا إزار لك فالتمس شيئاً، قال: ما أجد، قال: التمس ولو خاتماً من حديد، فالتمس فلم يجد شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: هل معكَ شيء من القرآن؟ قال: نعم؛ فقال رسول الله ﷺ : زوجتكها بما معك من القرآن"[1]! تأملي معي إزار!... خاتماً من حديد! شيء من القرآن! ما أيسره وأجمله من صداق!! شددنا فشدد الله علينا.

حين تُخطبُ الفقيرةُ إلى رجلٍ غنيٍّ يغبطها القليلُ ويحسدها الكثير، وكأنها خرجت من قسوةِ السجنِ إلى رحابةِ العيشِ، ومن فقر الكوخ إلى سعةِ القصر، وقبضتْ على مالِ رجلٍ ظلَّ يكنزه طوالَ عمره، وإن كانت أمنا حواء طُردت من الجنة ففي سعةِ الدنيا وسعٌ لأن تُطرد بعضُ ذرياتها إلى الجنة، لكن ...نسينا أو تناسينا أن نعمة الزواج في الرجل وليس في جيبه، والسعادةُ في القلبِ وليس فيما يتقلبُ ويتغير، السعادةُ في الحقائق الثابتة في مخيلتنا ونستطيعُ

---

[1] - (رواه البخاري ومسلم)

أن نحققها خلفَ جدران السجون أو ضيق الكهوف وفقر الأكواخ، فبعضُ فقيري الجيوبِ يستطيعُ أن يجبر القلوبَ المكسورة والأفئدة الكلمى، وبعضُ أغنياءِ القصور لا يهمه تحطيم النفوس بقدر تحطيم بعض مقتنيات قصره وعصره، وفي اتخاذ الغني الفقيرة زوجة الشقاءُ بعينه، وأولى به ويسعدها ويسعده أن يتخذها ابنةً فيوسع عليها، ويزفها إلى من تحبُّ، فقلبُ المرأة خُلق لينبض بالحبِّ، ولكنه لا يطيق أن يعبثَ به أحدُ الرجال مهما كان سلطانه وماله، وقد تهبُّ الجميلة قلبها لفقيرٍ أسمرَ ولا تمنح بعضه لمن في رونق الشمس وضياء القمر!.

وهكذا دائماً للروح أفراحها فبذرةُ الشر تهيج، وبذرة الخير تثمر، إن الأولى ترتفع في السماء سريعاً لكن جذورها في التربة قريبة، حتى لتحجب عن شجرة الخير النور والهواء، لكن شجرة الخير تستمر في نموها البطيء، لأن عمق جذورها في التربة يعوضها عن الدفء والهواء"...فكوني يا بنيتي شجرة خير أينما حللتِ، وشعاركِ دائما" وجعلني مباركاً أينما كنتُ".

الزوجة والأم...(البيت)

لو جاورَ أفقرُنا الآنَ إحدى غُرَفِ النبوةِ سيدركُ أن الغِنى ليسَ في الغرفِ وسعتها، ولكن في النفسِ وفسحتِها! وسيعرفُ أنَّ أسعدَ القلوبِ قلبٌ إذا أقبلتِ الدنيا عليه أدبرَ عنها، وترقَّبَ زوالَ نعمته متى جاءت، فإن بقيت فنعمَّا هي وشكرَ، وإنْ زالت فقد جهزَ نفسه لذلك وصبرَ، وهذا سرُّ بلاءِ الصالحين خيراً، فقد تعلمنا معهم... اخشوشنوا فإن النعمةَ لا تدوم، فلا غرابة أنْ تجد زوجةَ عالم تفترشُ الأرضَ وتلتحفُ السماءَ في ليلةٍ قاسيةٍ البرد، تُمنِّي نفسَها بدقائقَ معدوداتٍ في زيارة زوجها المعتقل، صابرة محتسبة، وأجزم أنها أكثرُ سعادةً من كثيراتٍ يتقلَّبن في فراشهن الناعم، فالسعادة لا تأتي من خارج النفس، بل في السير في طريق الحقِّ مهما كان شائكاً، اللهم ارزقنا صحبة الحقّ وأهله.

وكلُّ زوجٍ يقسو على زوجته لغير رضا الله سقطَ عمداً من الإنسانية؛ ويتحول دون أن يدري إلى طاغيةٍ، وكلّ أبٍ يتخذ من العنفِ والضربِ وسائلَ لتربية صغاره هوى سهواً من قائمة الرجال؛ ويتحول دون شعور إلى فرعون من فراعينَ كُثر، فليقسُ كلُّ زوجٍ على زوجته بالمودة ويصطبر عليها، وليضرب كلُّ والدٍ أبناءَه بالحُبِّ، فما أجمل التربيـة بالحُـبِّ والاحتـــواءِ!

وبعضُ الزادِ يسقمُ المعدة، وبعضُ الوصل يسعدُ معدةَ القلب، والفقر مع العفة يتولد منهما جنينٌ يسمى غنى النفس، وغنيُّ النفس يوسعُ على أهله في القليل فيبدو كثيراً، وبعضُ الأغنياءِ من شدة حرصه يضيق على ذويه فيبدو أكثر فقراً، والفضيلة لا تفرق ولا تحابي، وربما نبتت من معدة خاوية، كما تنبت من بطون مملوءة حمداً وشكراً؛ وكان عمرُ بن عبد العزيز يصلي العشاءَ ثم يدخلُ على بناته فيسلم عليهن، فدخل عليهن ذاتَ ليلة، فلما رأينه وضعن أيديهن على أفواهِهن، ثم أسرعن إلى البابِ، فقالَ للحاضنةِ: ما خطبهن؟ قالتْ: لم يكن عندهن شيءٌ يُتعشينَّ به إلا عدس وبصل، فكرهن أن تشمَّ ذلك منهن، فبكى عمرُ وقال لبناتِه: ما ينفعكن أن تتعشين بألوانِ الطعام وأطايبه ويؤمر بأبيكن إلى النار؛ فبكين حتى علتْ أصواتهن، ثم انصرف؛ يرحمك الله يا عمر! ماذا عساهُ يقول لو رأى الطواغيتَ وموائدهم؟ فالقليلُ يموتُ بالتخمة، والكثير يموتُ بفقر الدم!

إنَّ كلَّ زواجٍ يا بنية في حقيقته جزءٌ من نهضةِ الأمة، فهو الميثاقُ الغليظُ والضمُّ المقدسُ، والتلاقح النفسي والآمان والسكينة، فمتى فرَّطَ أحدهما أفضى بأسوأ ما فيه، لذا نجد أكثر البيوت عابثة، ولا تزيد الأمة إلا فشلاً؛ وجلُّ مشاكلِنا أننا نُخيِّطُ جروحَ مآسينا قبل تنظيفها

مِن الداخلِ؛ والزواجُ من سُننِ الفطرة، ومَن قاومَ سنن الفطرة فهو مغلوبٌ، نعم... قد نجدُ رجالاً شغلتهم الدنيا ببعضِ جوانبها فعزفوا عن الزواجِ لعلةٍ أو بغير علةٍ، ومِن الصالحين والعلماء من شغلهم العلمُ عن الزواج، لكن لم نسمعْ بتلك الصيحات من قِبل بناتنا وعزوفهن عن الزواج إلا حديثاً، وتكمن وتزيد هذه الفئة في اللاتي يعملن، أو لديهن استقرار مادي، فنراها تعزف خوفاً من تبعات الزواج؛ أو خشية الإخفاق، وربما لديها تصور خاطئ عن الرجال أو الحياة الزوجية، أو بعض التجارب الفاشلة ماثلة أمام عينيها، وكلما اقتربنا من الفطرة والبساطة، زالت هذه الصيحات وانطوت، لكنها المدنية وآفاتها وسنسمع المزيد، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاثة حقٌّ على الله تعالى عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف)[1].

وانظري إلى ثمرة زواجٍ في عفراءَ بنت عبيد بن ثعلبة، قال ابن حجر العسقلاني – رحمه الله تعالى – عنها: "وعفراء هذه لها خصيصة لا توجد لغيرها؛ وهي أنها تزوجت بعد الحارث بن رفاعة، البكير بن ياليل الليثي، فولدت له أربعة من الأولاد: إياساً، وعاقلاً، وخالداً، وعامراً، وكلهم شهدوا بدراً، وكذلك إخوتهم لأمهم بنو الحارث بن رفاعة (ثلاثة)"، فانتظم من هذا أنها امرأة صحابية لها سبعة أولاد شهدوا كلهم بدراً مع النبي ﷺ، ومعروف أن كلَّ من شهد بدراً غُفر له، وهو من أهل الجنة، فأي شرف يعدل شرف أن يكون من نسلكِ سبعة شهدوا بدرا؟

ولا تستقيم حياةُ الرجل دون الأنثى، ولا تنتظم حياة الأنثى إلا في كنفِ رجلٍ، فكلاهما كذراعي المقصِّ يُتمِّم أحدُهما الآخر أو هما بمثابة اليدين، ولا تتناغم الحياة أن تكون يدي أحدنا يُمْنَى أو يُسْرَى؛ فهذه تُكملُ نقصَ قرينتها أو تُتمِّمه، والمرأة في عين وقلب زوجها أشبهُ بالدار المبنية، وتغييرُ معالمها يعني هدمها، وهي الجو الإنساني في البيت، وقادرة أن تحيله لروضةٍ غناء وإن كان كهفاً، وبعضُ النساءِ في بيوتهن أشبه بالأزهار التي في المقابر، فقسوة الأزواجِ تميتُ روحَ الحديقةِ في ذاتها ومشاعرها، فتفقد نورها وعبيرها وكأنها تحولت من وردةٍ خارجةٍ من الطينِ كالطينِ ليس إلا ! وبعض النساء وعواصف الشتاء سواء، فمنهن من تجعله كقيظِ الصحراء ولو كان قصرا منيفاً، والبيت مملكة الأنثى وفيه تشعر أنّها متربعة على عرشها

[1] - (ورد في صحيح الجامع الصغير)

وأنها سيدته، فعلى كل رجل أن يشعرها بقيمتها داخل البيت...وإيَّاكَ أيها الرجل أن تهدم مملكتها، واحذر أن تزيحها عن عرشها، فإنَّك إن فعلتَ نازعتها مُلكها، وليس لملكٍ أشد عداوةً ممن ينازعه مُلكه وإن أظهر لك غير ذلك.

وأغلبُ النِّساءِ جُبلن على كُفر العشير وجحد المعروف، فإن أحسنتَ لإحداهنَّ دهراً ثم أسأتَ إليها مرة قالت: ما وجدتُ منكَ خيراً قط، فلا يحملنَّكَ هذا الخلق أن تكرهها وتنفر منها، فإنَّك إن كرهت منها هذا رضيتَ منها غيره، واستحضر ذاك الرجل الذي أتى عمر رضي الله عنه ليشكو زوجته، وماذا قال له عمر؟ وقال أحمد ابن حنبل عن زوجته أم صالح:" أقامت معي ثلاثين سنة، فما اختلفتُ أنا وهي في كلمة"! يرحم الله أم صالح.

وتيقني يا بنية أنه: متى غابَ فتيلُ الحُبِّ، اشتعلَ شررُ الحَربِ، فهذا مُقدسٌ وذاكَ مُدنسٌ، وبين هذا وذاكَ ضاعتْ هيبةُ الأمةِ وانكسرَ إناءُ الهمةِ، وتأثيمُ الآخرِ ليسَ من شروطِ الإيمانِ، ومن عجز عن إصلاحِ نيته، فما باله بنيةِ الآخرين! وكانت (البرمكية) جارية تُباع وتُشترى، فاشتراها المعتمد بن عباد... ملك المغرب، ثم أعتقها وتزوجها وجعلها ملكة، وحين رأت الجواري يلعبن في الطين حنَّتْ لماضيها، فاشتهت أن تلعب في الطين مثلهن، فأمر زوجها أن يُوضع لها من الطيب ما لا يُحصى على شكل طين، فخاضت فيه ولعبت، وكانت إذا غضبت من زوجها تقول: لم أرَ منكَ خيراً قط، فيقولُ لها مبتسماً: ولا يوم الطين، فتخجلُ وتعتذر[1].

والمرأة الفاضلة لا تكمل فضيلتها إلا إذا خلتْ دارها من كلِّ شيء، وفي قناعتها وأعماق ذاتها أن في دارها الجنة وكلَّ شيء، ومهما كان الوجهُ أسودَ فإنَّ حسنَ الأدبِ يجمِّلُه، ففضائلُ النفسِ تجعلُ من سواد الخِلقةِ محاسنَ، والزوجةُ الفاضلةُ السمراءُ تُظهرُ في رجلِها إنسانيةً ما كانتْ تظهرُ لولاها، فعندها ومعها يجد المرءُ طهارةَ قلبِهِ، ومن وجدَ طهارةَ قلبِهِ أقبلَ على الدنيا بسرورٍ جديدٍ في كلِّ ساعةٍ كما تشرقُ الشمسُ بأشعةٍ جديدةٍ كلَّ يومٍ؛ "قال مسلمة بن عبد الملك: دخلتُ على عمر بن عبد العزيز أعودُهُ في مرضِه، فإذا عليه قميصٌ وسخٌ، فقلتُ لفاطمة بنت عبد الملك: ألا تغسلون له قميصه؟ قالتْ: والله ما له قميصٌ غيره؛ وقال أبو أمية غلام عمر بن عبد العزيز: دخلتُ يوماً على مولاتي فغذتني عدساً،

---

[1] - (انظر دولة النساء للبرقوقي)

فقلتُ: كل يومٍ عَدَس! قالتْ: يا بني هذا طعامُ مولاك أمير المؤمنين"[1]، فهذا واقع الخليفة العادل من الدنيا، وهو مع لذاتِها كمن يضع قدميه في الطين ليمشي، أكبر همه ألا يجاوز الطينُ قدميه، يا إلهي! وكأن حالَ المؤمن من الدنيا وشهواتها أن يتخففَ منهما قدر المستطاع، لكن حقيقتنا المؤلمة تنادي على الدنيا ولذاتها! ولسان حالنا يقول: هل من مزيد؟ والْمَرأةُ مثل الْمِرآةِ... مجلوةٌ متى رأيتها جالَ الطرْفُ وحارَ، وانعكسَ من جمالِها شعاعٌ إلى الروحِ وبريقٌ إلى النفسِ، وصدئةٌ إذا اتصلتَ بها خلَّفت الصدأ ومادته على روحك مهما كانَ داخلك لامعاً؛ وكذلك الرجال؛ وأن السعادة ليست في الجدران أو الأثاث أو السقف أو ما حواه البيت، وأن أفضل الزواج أيسره مؤونة، وتمثلي بيتَ النبوة مهما ضاقت بكِ الحال، فقيل أنه كان حجرة من طين، ملحق بها حجرة من جريد، مستورة بكساءٍ من شعر، وبها سرير من خشبٍ مشدود بحبالٍ من ليفٍ، ووسادة من جِلدٍ حَشوها ليف، وقربة ماء وآنية من فخار لطعامه وشرابه ﷺ، ولنا فيه الأسوة الحسنة، وعزاء لكلّ فقير.

وهذه ميسون بنت بحدل زوجة معاوية – ﵁ – نازعها الحنين إلى الوطن فلم تصبر، تركت القصر، وكانت ذاتَ جمالٍ باهر، وحسن غامر، أُعجب بها معاوية ـ رضي الله تعالى عنه ـ، وهيأ لها قصراً مشرفاً على الغوطة، وزينه بأنواع الزخارف، ثم أسكنها، مع وصيفاتٍ لها، فلبست يوماً أفخر ثيابها، وتزينت وتطيبت بما أُعد لها، فنظرت إلى الغوطة وأشجارها، وسمعت تجاوب الطير في أوكارها، وشمَّت نسيمَ الأزهار وروائح الرياحين، فتذكرت نجداً، وحنَّتْ إلى أترابها وأناسها، وتذكرت مسقطَ رأسها، فَبَكَتْ وتنهدت، فقالت لها بعضُ حظاياها: ما يبكيكِ وأنتِ في مُلكٍ يضاهي مُلك بلقيس؟ فتنفست الصعداء، ثم أنشدت:

لبيتٌ تخفق الأرواح فيه ... أحبُّ إلي من قصر منيف

ولبسُ عباءة وتقرُّ عيني ... أحبُّ إلي من لبس الشفوف

وأكلُ كسيرة في كسر بيتي ... أحبُّ إلي من أكلِ الرغيف

وأصواتُ الرياح بكل فجٍّ ... أحبُّ إلي من نقر الدفوف

وكلبٌ ينبحُ الطراق دوني ... أحبُّ إلي من قط ألوف

---

[1] – تاريخ الخلفاء للسيوطي

وبكر يتبع الأظعان صعب ... أحبُّ إلي من بغل زفوف

وخرقٌ من بني عمي نحيف ... أحبُّ إلي من علج عنوف

خشونة عيشتي في البدو أشهى .... إلى نفسي من العيش الطريف

فما أبغي سوى وطني بديلا .... فحسبي ذاك من وطنٍ شريف

إن ميسون تفضل خيمتها المتواضعة على قصر زوجها الواسع، وتفضل قطعة الخبز المكسورة في باديتها على الرغيف الكامل، وتفضل ارتداء العباءة الخشنة على الحرير الناعم مادامت وسط ذويها، وتفضل أصوات الرياح العاتية في البادية على ضرب الدفوف في غيرها، ونباح الكلب أمام خيمتها ليطرب سمعها على القط الأليف، وتفضل ابن عمها النحيل الهزيل ليكون زوجها ضاربة عرض الحائط بالغريب مهما علت منزلته، فلا مقارنة عندها بين البادية وشدتها مع المدينة وترفها! هي تفضل كل ذلك لأنها لا تريد غير وطنها بديلاً، فلما دخل معاوية عرفته الحظية بما قالت، وقيل: إنه سمعها وهي تنشد ذلك، فقال: ما رضيت ابنة بحدل حتى جعلتني علجاً عنوفاً، هي طالقٌ ثلاثاً؛ مُروها فلتأخذ جميع ما في القصر، فهو لها ثم سيرها إلى أهلها بنجد، وكانت حاملاً بيزيد فولدته بالبادية، وأرضعته سنتين ثم أخذه معاوية ـ ﷺ ـ منها بعد ذلك، فهكذا الدنيا!

ويا للعجب! الفقير والغني كلاهما يضجر، هذا يضجر من كثرة الأشياء الموجودة، وذاك يضجر من الأشياء الغير موجودة، وهذا يتألم بعدم الشعور باللذة بسبب تكرارها، وذاك يألم بعدم اللذة لأنه لم يقاربها، ولله دره العقاد حين قال:

صغيرٌ يطلبُ الكِبرَا ... وشيخٌ ودَّ لو صغرا

وخالٍ يشتهي عملا ... وذو عملٍ به ضجرا

وربُّ المالِ في تعبٍ ... وفي تعبٍ من افتقرا

ويشقى المرءُ مهزوماً ... ولا يرتاح منتصرا

وذو الآولادِ مهمومٌ ... وطالبهم قد انفطرا

لكن حين نتعايش بنفس قنوعة وقلبٍ راضٍ تبدو حتى أولويات الحياة كزينتها، فالمالحُ مع الرضا يتحول إلى حُلو، والحُلو مع السخط يتحول إلى علقم، فهي النفس الإنسانية التي

تستقبل الأشياء، فبعضُ السقم يجعل ألذ الأطعمة مرّاً، وأفضل إدام هو العافية والرضا، ويرحم الله من قال[1]:

يا نَفْسُ لا تَقْنَطِي مِنْ زَلَّةٍ عَظُمَتْ ... إنَّ الكَبائرَ في الغُفرانِ كاللَّمَمِ

لعلَّ رحمةَ ربي حين يقسمها ... تأتي على حسبِ العصيانِ في القسمِ

ياربِّ واجعل رجائي غير منعكسٍ ... لَدَيْكَ وَاجعَلْ حِسابِي غَيرَ مُنْخَرِمِ

والطفْ بعبدكَ في الدارين إن لهُ ... صبراً متى تدعهُ الأهوالُ ينهزمِ

واعلمي يا بنية أن الإنسان يقضي ما يقارب ثلثَ حياته في النوم، والمرأة صانعة الأبطال ومفرخة الرجال، وعليها صلاح البيت وتحويله إلى جنةٍ وإن كان ظاهره كهفاً خرباً، وبها تضيق القصور إن تبرمتْ، وهي أشبه بجذر الشجرة، يضرب في عمق الأرض في الظلام والطين باحثاً عن بقاءِ شجرته، فهو لا يُرى، لكن أغلب الشجرة من عمله، لذا ستجدين ما بقي من حياتك بين تحضير الطعام وتدريس الأولاد، وتنظيف البيت والاهتمام بذاتك وبزوجك وعناية أولادك إن وهبكِ الله زوجا أو أولاداً، فلابد من تجديد النية في كلِّ لحظة حتى تتحول العادة إلى عبادة، فالكلُّ ينام ويأكل ويقوم بذاتِ الوظائف إلا من رحم، لكن شتان بين من ينام ويأكل ويتقوى وينوي ويأخذ الأجر، وبين هذا أو ذاك الذي حظه من يقظته كما البعير.

فنِيةُ إطعام الطعام، ونية خيركم من تعلم العلم وعلمه، ونية إكرام الضيف من مقتضيات الإيمان، وفي نظافة البيت احتسبي نية إماطة الأذى عن الطريق صدقة، وتعاملي مع مَن هم أكبر منكِ بنية ليس مِنَّا مَن لم يرحم صغيرنا ولا يوقر كبيرنا، أما مصيبة المصائب وكبيرة الكبائر وقل من تنجو منها فاحذري الفضفضة مع الغير، عَنْ عِمَارَةَ بْنِ زَاذَانَ قَالَ:" قَالَ لِي مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ: يَا بُنَيَّ! لَيْسَ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِالْعَافِيَةِ، وَلَوْ كَانَتْ لِلذُّنُوبِ رِيحٌ ما جَلَسَ أَحَدٌ إِلَيْنَا"، وتذكري وزن كل كلمة تسمعيها أو تقوليها يوم الحساب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، قيل أن:" الصغيرة هي التبسم والكبيرة هي الضحك"[2]! لذا

---

[1] - البوصيري

[2] - قاله ابنُ عباس ﵄

أقولُ لكم: تسعة أعشار الحكمة في الصمت والعاشر في اعتزال الناس، والأصل أن نصمت إلا أن نتكلم بخير، وحصائد الألسن بسببها يُكب الناس على وجوههم يوم القيامة.

إذا بلغ الفتى ستين عاما... فنصفُ العمر تقضيه الليالي

ونصفُ النصفِ يمضي ليس يد ...ري وباقي العمر همٌّ واشتغال[1]

"وفي اللسانِ آفتان عظيمتان، إن خلص من إحداهما لم يخلص من الأخرى: آفة الكلام، وآفة السكوت، وقد يكونُ كلٌّ منهما أعظمَ إثماً من الأخرى في وقتها، فالساكتُ عن الحقِّ شيطانٌ أخرس، عاصٍ للهِ مراءٍ مداهن إذا لم يخف على نفسه، والمتكلمُ بالباطلِ شيطانٌ ناطقٌ عاصٍ لله؛ وأكثرُ الخلقِ منحرفٌ في كلامه وسكوته، فهم بين هذين النوعين، وأهلُ الوسطِ– هم أهل الصراطِ المستقيم– كفوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم بالنفع في الآخرة"[2]، فلا ترى أحدهم يتكلمُ بكلمةٍ تذهبُ عليه ضائعة بلا فائدة، فضلاً أن تضره في آخرته، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسناتٍ أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها كلها، ويأتي بسيئاتٍ أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله وما اتصل به.

يرحم الله ابن القيم فكأنه يشخص واقعنا الآن، فأكثرُ ما ابتُلينا به في زماننا وفي محنتنا الآن سببه إما شيطان أخرس وليس أدلُّ عليه من علماء يصدعوننا ليل نهار في فضائيات ملوثة، وعند الملماتِ والشدائد وكأنه فصٌّ مِلح وداب! أو شيطان ناطق كمن ينعق ليل نهار في قنوات مسيلمة يحابي الطواغيت ويُنَظِّر لهم وكأنه يعبدهم من دون الله، نسأل الله السلامة وجعلنا وإياكم من أهل الوسط.

وليتنا نغض الطرف ولو قليلاً عن عيوب الآخر، لاسيما وقد أمرنا الله بالإحسان إليه، وقيل والعهدة على الراوي أنه:(تركَ رجلٌ زوجتهُ وأولادهُ مِن أجلِ وطنه قاصداً أرضَ معركةٍ تدورُ رَحاها على أطرافِ البلادِ ،وبعد انتهاءِ الحربِ وفى طريقِ العودةِ علمَ الرجلُ أن زوجتهُ مرضتْ بالجدري في غيابهِ، فتشوه وجهها كثيراً، تلقى الرجلُ الخبرَ بصمتٍ وحزنٍ عميقينِ شديدينِ، وفي اليوم التالي شاهدهُ رفاقهُ مُغْمض العينين، فرثوا لحالهِ وعلموا حينها أنهُ لم يعد يبصر، رافقوه إلى منزلِه، وأكملَ بعد ذلكَ حياتهُ مع زوجته وأولاده بشكلٍ طبيعيٍّ، وبعد سنواتٍ

---

[1] - (ينسب هذا للإمام علي كرم الله وجهه)

[2] - (الداء والدواء 234)

تُوفيت زوجته، وحينها اندهشَ كلُّ من حولهُ بأنهُ عادَ بصيراً، وأدركوا أنهُ أغمضَ عينيهِ طيلة تلكَ الفترة كي لا يجرح مشاعرَ زوجتِهِ عند رؤيته لها).

ربما تكونُ تلكَ القصة مِنَ النوادر أو محض خَيال أهلِ الأدبِ والحكمة، وراقتْ لي كثيراً، وربما تروقُ لكِ، ومن يجرب تلك الإغماضة سيجد فيها خيراً، ليتنا جميعا نغضُّ الطرفَ عن عيوبِ الآخر، والنظر له بعدسةٍ مصغرة، لاسيما وإن كان هذا الآخر أوصانا الله به، وما أروعها وأنبلها وأجملها وأجلها من إغماضة! فلم تكن من أجل الوقوفِ على صورةٍ جميلةٍ للزوجة، وبالتالي تثبيتها في الذاكرةِ والاتكاء عليها كلما لزمَ الأمر، لكنها من أجلِ المحافظةِ على سلامةِ العلاقةِ الزوجية، حتى لو كَلَّفَنا ذلك أن نُعْمِيَ عيوننا لفترةٍ طويلة خاصة بعدَ نقصانِ عنصر الجمال المادي أو إصابة الرجل بمرضٍ ما أو ضعفٍ أو نقصٍ ما أو العكس، تلك هي القنطرة التي نعبر عليها إلى الجمالِ الروحي لشركائنا في الحياة، لكنْ ...هل منا من أغمضَ عينهُ قليلاً عنْ عيوبِ الآخرين وأخطائهم كي لا يجرح مشاعرهمْ ؟ دعونا نعيش مع أحبابنا وشعارنا: إن لم تكن أعمى فتعامى، وتغافلوا يرحمكم الله.

واعلمي يا بنية أنَّ المرأة العفيفة إذا وسوس لها الشيطان، أو عرضتْ لها حالةٌ من التدني، أو انتابتها لحظة ضعفٍ، ثم نظرت إلى نفسها وحظها وطعم نفسها، فقد تزل وتعمى، لكنها إذا نظرتْ إلى هذا الفجور وذاك التدني في غيرها، ومن ثم آثاره ونتائجه على ذويه، ولجأت إلى صوت ضميرها الخفي ورددت: هذا ليس لي ... هذا لا ينبغي لمثلي، وألجمت بثَّ الأماني بالمنايا، وهابتْ خطوات الخطايا ووقعها، وأيقنتْ أن لحظة عارضة قد تحولها إلى درهمٍ زائفٍ لا يقبله الناس، هنا...وهنا فقط، فكأنها أضافت إلى نفسها نفوساً أخرى، تُريها الأشياء مجردة كما هي على حقيقتها، فتزهد فيها ثم تمقتها، وتجعل بينها وبين التَّدني حجابا مستوراً، ثم تعلو همتها فتعوض نقص اللذة لديها بلذة المنع والعفاف والغنى، فمن تبع الهوى هوى، ومن رُمي في أحضان اللذة انتكس بالذلة، فلا أذاقنا الله طعم أنفسنا، ومن ترك حراماً لله، عوضه بأنفس منه، وقال الشاعر[1]:

لعمرُكَ ما أهويتُ كفِّي لريبةٍ .... ولا حملتني نحوَ فاحشةٍ رجلي

ولا قادني سمعي ولا بصري لها .... ولا دلَّني رأيي عليها ولا عقلي

---

[1] - (معن بن أوس)

وأعلمُ أني لم تُصبني مصيبةٌ .... مِن الدهر إلا قد أصابتْ فتًى قبلي

ولست بماشٍ ما حييتُ بمنكرٍ .... مِن الأمرِ لا يسعَى إلى مثلِه مثلي

ولا مُؤْثرًا نفسي على ذي قرابةٍ .... وأُوثرُ ضيفي ما أقام على أهلي

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (نحن معشر قريش نعدُّ والجود السؤدد، ونعدُّ العفاف وإصلاح المال المروءة)، وقدم وفد على معاوية فقال لهم: (ما تعدون المروءة؟ قالوا: العفاف وإصلاح المعيشة، قال: اسمع يا يزيد)، أما مُحَّد بن الحنفية فقال: (الكمال في ثلاثة: في الدين، والصبر على النوائب، وحسن التدبير في المعيشة)، وعمر بن عبد العزيز يشترط العفة لتولي القضاء فيقول: (خمس إذا أخطأ القاضي منهن خصلة كانت فيه وصمة: أن يكون فهماً حليماً عفيفاً صليباً، عالماً سؤولاً عن العلم)، وهذا أيوب السختياني تتعدى العفة لديه عن الأعراض لتشمل الأموالَ أيضاً؛ ويعدها من النبل لدى المرء فيقول: (لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان: عن أموال الناس، والتجاوز عنهم)، وقال الشافعي: (الفضائل أربع: إحداها: الحكمة وقوامها الفكرة، والثانية: العفَّة وقوامها الشهوة، والثالثة: القوة وقوامها الغضب، والرابعة: العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس).

وفي يوم من الأيام وبينما كان رسول الله ـ ﷺ ـ يجلس بين أصحابه إذ تلا عليهم قوله تعالى: "مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ"(الحديد: 11). فإذا بأحد الحاضرين وهو (أبو الدحداح) يقول لرسول الله ـ ﷺ ـ: أيستقرضنا الله؟ فيجيبه ـ ﷺ ـ: نعم؛ فيقول له: لقد أقرضتُ ربي حائطي (بستاني)، هذا البستان كان به من النخل ما يقارب الستمائة نخلة؛ وانطلق الرجل إلى البستان، وما إن وصل إليه، حتى صاح على زوجته: يا أم الدحداح: هيا بنا نخرج من البستان فقد أقرضته ربي، فقالت المرأة لزوجها: ربح البيع أبا الدحداح ربح البيع أبا الدحداح (رواه الطبراني)؛ وهكذا نجد دور الأم كمربية وداعمة ومكملة لدور الأب، ومعينة على الطاعة وسبب لدخول الأسرة الجنة، فنجد من تقول لزوجها: اتقِ الله فينا ولا تطعمنا من حرام.

والرجل في حاجة إلى مواساة امرأته وتسكينها إياه، في حالات الغضب أو نزول حوادث محزنة، كموت ولدٍ وفقد مالٍ وأشباه ذلك، ولقد ضربت زوجة أبي طلحة ـ رضي الله عنهما ـ أعلى مثالٍ في ذلك: كما في حديث أنس بن مالك ـ ﷺ ـ قال: "اشتكى ابن لأبي طلحة،

قال: فمات وأبو طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئاً ونحته في جانبٍ من البيت، فلما جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: قد هدأت نفسه، وأرجو أن يكون قد استراح؛ وظنَّ أبو طلحة أنها صادقة، قال فبات فلما أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات، فصلى مع النبي ـ ﷺ ـ وأخبره بما كان منهما، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: (لعل اللهَ أن يبارِكَ لكما في ليلتكما)[1].

والمرأة تمرُّ بحالات من الضعف الجسدي والتعب النفسي، حتى إنّ الله سبحانه وتعالى أسقط عنها مجموعةً من الفرائض التي افترضها في هذه الحالات، فقد أسقط عنها الصلاة، وأنسأ لها الصيامَ خلالهما حتى تعودَ صحتها ويعتدلَ مزاجُها، فعلى شريكها أن يهتم لحالها، ويرقَّ لتغيراتها النفسية، وكما خففَ الله سبحانه وتعالى عنها فرائضه علي شريكها أن يخفف عنها طلباته وأوامره، وعليها أيضا ألا تكون بخلاف طبيعتها، وأسوأ ما في المرأة ألا تطيع وتملأ بيتها شرّاً وصخباً، وإن فقدت في رجلها كمالاً تنشده عليها أن تتنازل عن بعض حقِّها، وتدع الحياة تجري في أبنائها لتعوض ما تفقده، وتؤثر الآخرة على الفانية، ويبقى الرجلُ في عينها رجلاً وإن قلَّ، وتتذكر أنه جنتها ونارها، وسيحاسبها الله على ما فعلت في دنياها وما فعلت في رجلها؟ وهي إن تزوجت فأصابت في رجلها ما تريد وكانت له أمة مطيعة وخادمة مريحة ربما لا تصيب من الأجر إلا النصف، لكنها حين تتزوج رجلاً فتجده على غير هواها ثم تطيعه ولا تعصي الله فيه فها هنا تصيب من الآجر ما لا يعلمه إلا الله.

وما أحلى العفو والتسامح حين يغلف روح البيت لاسيما حين نختلف! فالمعدن النفيس لا يظهر إلا حين الشدة، "جلس موسى بن إسحاق قاضي الأهواز في القرن الثالث الهجري ينظر قضايا الناس، وكان بين المتقاضين امرأة ادَّعت على زوجها أن عليه مهراً خمسمائة دينار، فأنكر الزوجُ أن لها في ذمته شيئاً، فقال له القاضي هات شهودك، فقال الزوج: قد أحضرتهم، فاستدعى القاضي أحدهم وقال له: انظر إلى الزوجة لتشير إليها في شهادتك، فقام الشاهدُ وقال للزوجة: قومي، فقال الزوج: ماذا تريد منها؟ فقيل له: لابد وأن ينظر الشاهدُ إليها وهي مسفرة[2] لتصح عنده معرفته بها، فَكَرِهِ الرجل أن تضطر زوجته إلى الكشف عن وجهها للشهود أمام الناس، فقال الزوج: إني أُشهد القاضي على أن في ذمتي

---

[1] - (البخاري (1/437-438) ومسلم (4/1909))

[2] - (كاشفة وجهها)

هذا المهر لزوجتي ولا تسفر عن وجهها؛ فلما سمعتِ المرأة قوله أكبرتْ في رجلها أنه يضن بوجهها على رؤية الشهود وأنه يصونها عن أعين الناس، فصاحتْ تقول للقاضي: إني أشهدكَ على أني قد وهبته هذا المهر، وأبرأته منه في الدنيا والآخرة، فقال القاضي لمن حوله: اكتبوا هذا في مكارم الأخلاق"[1].

كثيرة هي مشاكل الحياة ولاسيما الأسرية، فالخلاف وارد، لكن أدب الاختلاف واجبٌ بين الجميع ونفتقده اليوم أشد ما يكون الافتقاد، ولو أسقطنا هذا الخلاف على واقع كثير من مشاكل الزوجية التي تُعرض كل يوم على محاكمنا لوجدنا العجب؛ فأقل الناس من يفعل فعل الزوج ويصون كرامة زوجته حتى وهي تقاضيه، أما فطنة الزوجة وسلامة عقلها وفطرتها هدتها إلى أن تكافئ زوجها على حسن صنيعه بأحسن ما يكون، ولا ننسى موقف القاضي وتحريه العدل الذي نفتقده في أيامنا فلا يحكم إلا ببينة، ولما كان الجميع له في مكارم الأخلاق نصيبٌ، اجتمعوا ليمثلوا لنا رواية جميلة في واقع الحياة لنتعلم منها بعضاً من مكارم الأخلاق التي هي عصب ديننا وقوامه، والآن أسأل: مَن مِن الرجال في أيامنا يصنع صنيعة رجل القصة؟ ومَن مِن النساء لا تأخذها العزة بالإثم وترجع عن حقِّها في سبيل دوام العشرة والأسرة، فاعلمي يا بنية أنَّ بعضَ كمالِكَ في كلامِكَ! وربما أفضى خللُ التفكيرِ إلى التكفير؛ وربَّ كلمةٍ تهوي بصاحبها في النار سبعين خريفاً؛ أصلح الله سريرتنا وهدى نساءنا لما فيه الصلاح.

وبعض الناس يتصور أنه يرى الأمور دائماً على الوجه الصحيح، ورحم الله من قال: قولي صحيح يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب، وحين أعتبرُ نفسي الصحيحَ المطلقَ وغيري الخطأ المطلق فهذا لعمري هو الخطأ مِن ألفِهِ إلى يائِهِ، لأني حينئذ تفقد الأحداثُ تأثيرها لدي، ولا أستشعرُ معنى الخطر الآني، وينتفي عندي تقبل الآخر وفق مقاييس العدالة والرحمة والمصلحة، وخابَ وخسر مَن ظنَّ نفسه يمتلك الحقيقة، وتجاربنا كل يوم تؤكد أننا نرى الأمور بصورة مغايرة عما مضى، وبعض الأئمة اختلفت رؤيتهم في ذات المسألة بمضي الزمن، ومَن ظنَّ أنه يمتلك الحقيقة فقد ضلَّ، فالحقيقة أكبر من أن يمتلكها شخص بمفرده، فأولى بالجميع أن ينزع نظارته، ويدع تلفازه الذي يرى منه مساوئ الغير.

---

[1] - (تاريخ بغداد للخطيب للبغدادي)

وهذه قصة لزوجين حديثين سكنا منطقة صناعية جديدة، وإذا بالزوجة تقول لزوجها أن جارتها لا تحسن غسيل الملابس، حيث شاهدت مناشر الغسيل والملابس تبدو عليها غير نظيفة،لم يعلق الزوج ولم يكترث، وتكررت ثرثرة الزوجة بعد أيام حول جارتها وقالت: ربما هي لا تشتري مسحوق غسيل من النوع الجيد، وظلت الزوجة الشابة تهاجم جارتها التي لم تشاهدها وتتهمها بعدم العناية بغسيلها، وفي صبيحة يوم مشرق إذا بالزوجة تنادي على زوجها الشاب من غرفتها ومهللة: يا فلان ...أخيراً غسلت جارتنا ملابسها بشكل رائع! يبدو أنها غيرت من المسحوق الرديء الذي كانت تستخدمه، وهنا يتدخل الزوج قائلاً: بل أنا اليوم نظفتُ زجاجَ النافذة التي تنظرين من خلفها!

فهكذا الكثير منا يُصرُّ دائماً أن يرى الأمور وفق نظرته هو، وكثيراً ما يتعصب لها، ناسياً أو متناسياً أن يزيحَ الغشاوة التي على قلبه، أو الرانَ الذي تخلل ثناياه، أو يزيل الصدأ الذي يعانق نظارته، أو حتى ينظف زجاج نافذته، هذا في الأمور العادية، فما بالنا حين يلج الشنآن والحسد والبغض فؤاده! أظنُّ ساعتها سيرى الجميلَ قبيحاً، ويُقسم ويظنُّ نفسه صادقاً، وقد يصل الأمر لدى البعض أن يبصق الحلال والطهارة، ويستحب العمى على الهدى، وقلَّ من يعدلُ والكراهية قرينه، رغم وصية الخالق:" وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا".

وحين نلقي نظرة على شركاء الحياة وعلاقتنا العاطفية الماضية حتماً سنجد من قصر تجاهنا، أو من سخر من مشاعرنا في لحظة، وبعضٌ ممن حولنا لا يرضى حتى عن شكله وجسمه وظروفه الرضا التام، بل تحدثه نفسه وأمانيه بأن فلاناً ربما أجمل منه، وشكله متسق مع جسمه فبدا رائعاً، والبعض يعاير الآخر بعيب في خِلقته؛ وهذا دأب كثير من النساء إلا من رحم، فهل من الممكن أن ننسى مشاعرنا السلبية تجاه هؤلاء ونسامحهم ونتعايش معهم؟ هل أنتِ في وئام مع مظهرك وشكلك والطريقة التي تبدو عليها ملامحك؟

واعلمي... أن مهمة الأم غاية في الصعوبة وهي بحق صانعة الرجال، فكما قال شوقي:

الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعباً طيب الأعراق

نعم أدركُ أنَّ بعض الآباء إن لم يكن الكثير منهم والأمهات كذلك لديهم أمية عاطفية، وبعضنا الآخر لديه العاطفة ولا يستطيع أن يعبر عنها بالطريقة الصحيحة، وكثير من الرجال

يتصورون أن التعبير عن المشاعر ضعفاً، وأنا من الذين لا يستطيعون التعبير عن العواطف بالكلام المنمق، وأري أن الحبَّ والاحتواء بالفعل أهم كثيراً من القول، فيكفي فِعْلي الدال على الحبِّ والمودة، ولا نبتذل كلمات الحب بتكرارها، فهي كمِلح الطعام قليلُه يكفي، وزيادته تصيب بالأذى؛ وتكمن المشكلة حين نجد الأب أو الأم مشاعرهما مكبوتة أو لا يستطيعان التعبير عنها، ولديهم من الأبناء من هو مرهف الحس والمشاعر ويحتاج للكلمة والحضن والدفء الأسري فلا يجده، فأغلب ظني أن بعض الفتيات حين يفتقدن الحبَّ والاحتواء في البيت تبحث عنه خارجه، وتستجيب لأول من يُسمعها كلمات الهوى والإطراء، لاسيما والكثيرات يسمعن الكلام غير المحبب داخل جدران البيوت، ويستيقظن على الشجار الأسري، ويلمسن الطلاق النفسي الغير معلن بين الأم والأب.

وواقعنا المؤسف يقول: منذ ما يقرب من ثلاثة عقود أو يزيد تعاني معظم الأسر العربية من ظاهرة (التأنيث)؛ والسبب سفر الأب غالباً لتحسين مستوى المعيشة، ويزيدُ مع السفر سقف مطالب الأسرة المادية، فيعيش الأب بعيداً، وتتراكم على الأم مسؤولية تربية الأسرة في غياب الأب، وإن كانت عاملة فهذا يزيد الطين بلة، فينشأ الأولاد محرومين من الأب والأم معاً(الحرمان هنا بمعناه العاطفي والأمن والدفء) فنجد الجميع يعاني، الأب يعاني من السفر والهجر، والأم تعاني من تراكم المسؤولية وفقد الأمان النفسي، والأولاد بدورهم يعانون من فقد الاثنين معاً، لنكتشف في النهاية أن الإشباع المادي لا يغني عن الأمان النفسي، وتُصابُ غالبية الأسر بالانفصام العاطفي، ويرمي كلُّ طرفٍ باللوم على الآخر، فهنا يكون الجاني هو المجني عليه، فالسفر إن لم يكن مقنناً وهدفه محدد له تبعات مزلزلة في كيان الأسرة، لاسيما وإن كانت الأسرة غير مجتمعة الشمل، والحقيقة:

لعمري ما ضاقت أرض بأهلها....ولكن أخلاق الرجال تضيق

ويُقال أن أعرابياً أراد السفر، فقال لامرأته :

عُدِّي السنين لغيبتي وتصبري .... وذَرِي الشهور فإنهنَّ قصارُ

فأجابته: فاذكر صَبابَتَنَا إليك وشوْقنا .... وارحم بناتِك إنهنَّ صغارُ

فأقام في وطنه، وترك السفر، يا الله!! كيف سكب في قلوبنا الحبَّ سكباً لا مثيل له؟

وكان عمر بن عبد العزيز يقول: ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله في عقبه وعَقب عَقبه،

وكان سعيد بن المسيب يطيل في صلاته ويقول لولده: لأزيدن في صلاتي من أجلك، رجاء أن أُحْفَظَ فيك، فليس حفظ الأبناء بشهادات الاستثمار والودائع في البنوك، بل بتثقيل كِفة الحسنات بمزيد من الطاعات، وصلة الرحم وصدقة الخفاء.

وكما قيل: من أراد زوجة مثل فاطمة فليكن هو مثل علي، وقد يكون الإنسان أحد إفرازات بيئته، لكن هذا في سِنه الأول وقبل التكليف، لكن حين ينضج وتتجلى له الأمور وأضدادها عليه أن يسعى لتغير واقعه بقدر الإمكان، ولا يظل أسير عادات المجتمع السيئة، " وكان صغيراً فاستيقظ من نومه ذاتَ ليلة فرأى والده قائماً يصلي، فقال: يا أبي علمني كيف أتطهر وأصلي معك؟ فقال أبوه: يا بني ارقد فإنك صغير؛ فقال: يا أبتِ إذا كان يوم القيامة أقول لربي: يا رب قلتُ لأبي علمني كيف أتطهر وأصلي فقال: ارقد فإنك صغير، فقال أبوه: لا والله يا بني، وعلَّمه وكان يصلي معه"[1]!! هذا حال الطفل الذي يُولدُ كبيراً، ولو كان أبوه يقيم الليلَ أمام فيلم أو مباراة في الدوري الأسباني لجلس ابنه يقلده ويحاكيه، فحين نبرُّهم صغارا حتماً سيبروننا كباراً، نسأل الله السلامة والعافية.

احمدي الله وارضي بقسمك في الدنيا، فلا نحن نختار أهلنا، ولا نحن محاسبون علي فعلهم، والبيت المتوازن هو من تقوم فيه المرأة بدور مربية الجيل وصانعة الرجال، وليست مفرخة للأطفال فحسب، وفي ذات البيت نجد الرجل يؤدي دوره بقدر استطاعته كرجل يمنح القدوة لصغاره، وتحديد الغاية والهدف التربوي من الأهمية بمكان في حياة الأسرة وفي ضمير الطفل، وقيل" فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى، فقد أساء إليه غاية الإساءة، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قِبل الآباء وإهمالهم لهم، وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه، فأضاعوها صغاراً، فلم ينتفعوا بأنفسهم ولم ينفعوا آباءهم كباراً"[2].

والتربية بالقدوة قد تكون أبلغ من التعليم والترغيب والترهيب وغيرها من الوسائل، لأن الأخذ بالشيء عملياً والتمسك به أكثر إقناعاً للمتعلم من الحديث عنه والثناء عليه، فمجرد العمل بالخير يحصل قناعة عند الولد بصلاحية هذا الخير، وهذا واقع مشاهد في حياة الناس، وقد أكد على هذا علماء الإسلام منذ القدم، ونقلوا وصية عمرو بن عتبة لمؤدب أولاده: (ليكن

---

[1] - أبو يزيد البسطامي

[2] - الإمام ابن القيم

أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك، فإن عيونهم معقودة بعينك، فالحسنُ عندهم ما صنعتَ، والقبيحُ عندهم ما تركتَ).

والتربية بالحب والاحتواء أكثر إيجابية، قبليه واحتضنيه وامدحي سلوكه بعبارات محببة له مثل" جزاك الله خيراً، بارك الله فيك، ممتاز، أحسنت، عمل رائع"، والطفل هبة من الله ونعمة تستوجب الشكر، ومسؤولية سيحاسبنا الله عليها، وكفي بالمرء إثماً أن يضيع من يعول؛ فالأسرة أب وأم وأولاد، فلابد من ذوبان الفرد في الجماعة، ويعمل من أجل صلاحها وفلاحها، ونجاح الواحد منها هو نجاح للمجموع والعكس، واللافت للنظر والذي يخصُّ أمتنا دون سواها ليس تقدير العمل كقيمة فقط ... لكن الإيمان بأنه الطريق الموصل للآخرة ولا طريق سواه، وحين يلتقي طريق الدنيا بدرب الآخرة ويتطابقان فهما لا ريب شيء واحد، ويحدث هذا في أعماق النفس ووجدانها فتتوحد الأهداف التي تبدو متعارضة، وتلتقي النفس مع غيرها من النفوس في خضم الحياة الواسع، فينسجم كلاهما مع فضاء الكون دون اصطدام ولا تضاد، ولا يصنع هذه العجيبة إلا الإسلام حين يربط الدنيا بالآخرة في نظام فريد ونسق عجيب، فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

الحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة، منه تعلمنا قِيمنا، وأُشربنا مكارم الأخلاق منه، وخُلق المرأة المسلمة وديدنها أن تربي ولدها على مراقبة الله والشجاعة والإقدام ومقاومة الظلم، لكن للأسف بعض الأمهات تُخَوِّفُ ابنها من العِفريت أو الذئب، وأبو رجل مسلوخة حتى لا يخرج ليلاً، حتى العرب قديماً اخترعوا الغول ليغرسوا في بنيهم الجبن والخنوع، وما أكثر ما نسمعُ في أيامنا الخالية والقادمة عبارات... امشِ يا ابني جنب الحيط! وزادوا الطين بلة فاخترعوا للحيطان آذاناً، فلا نامت أعينُ الجبناء.

والحياة ليست خيراً كلها، وأحياناً يأتينا الخير من حيث نكره، وكم من الآفات تأتينا من حيث نحب، لذا أقول: لعل الخير يكمن في الشر؛ ويُحكى أن رجلا أراد أن يتزوج ووضع في أحلامه امرأة شقراء بيضاء تسر الناظرين، ولكن عندما تزوج وكشف عن وجهها حيث لم يرها من قبل ... وجدها سوداء، فهجرها في ليلة الزفاف، واستمر الهجران بعد ذلك، فلما استشعرت زوجته ذلك ذهبت إليه وقالت :" يا فلان... لعلَّ الخير يكمن في الشر"، فدخل بها وأتم زواجه، ولكن استمر في قلبه ذلك الشعور بعدم رضاه عن شكلها فهجرها ثانية،

ولكن هذه المرة هجرها عشرين عاماً، ولم يدرِ أن امرأته حملت منه، وحين رجع إلى المدينة حيث يوجد بيته وأراد أن يصلي دخل المسجد، فسمع إماماً يُلقي درساً، فجلس فسمع؛ فأُعجب وانبهر به! فسأل عن اسمه فقالوا : فلان! فقال : ابن مَن هو؟ فقالوا : ابن رجل هجر المدينة من عشرين عاماً؛ فذهب إليه وقال له : سوف أذهب معك إلى منزلك، ولكني سأقف أمام الباب وقل لأمكَ: رجلٌ أمام البيت يقول لكِ: "لعل الخير يكمن في الشر"، فلما ذهب وقال لأمه قالت :أسرع وافتح البابَ، إنه والدك أتى بعد غيابٍ!

لم تقل له أنه هجرها وذهب، لم تذكر أباه طول غيابه بالسوء، فكان اللقاء حاراً بينه وبين ابنه وزوجته! شكراً لكِ أيتها الأم على الدرس الجميل" لعل الخير يكمن في الشر"، فيا كلَّ أربابِ الابتلاء والمحن في سورية ومصر وفلسطين والعراق واليمن... لعلَّ الخير يكمنُ في الشرِّ، وتبقى الحقيقة... ففي باطن كل إنسان تعرفه ما تجهله، وهذا المجهول هو وحده المتصل بالغيب، ولذا كان ...لو علمتم ما في الغيب لاخترتم الواقع!

وصبر الرجل على سوء خلق زوجته أو دمامتها لعمري إنه قربة عظيمة وطاعة نفيسة، قيل لأبي عثمان النيسابوري: ما أرجى عمل عندك؟ قال: كنتُ في صبوتي يجتهد أهلي أن أتزوج فآبى، فجاءتني امرأة فقالت: يا أبا عثمان! أسألك بالله أن تتزوجني، فأحضرت أباها. وكان فقيراً. فزوجني منها، وفرح بذلك، فلما دخلتْ إليَّ رأيتها عوراءَ عرجاءَ مشوهة ! قال : وكانتْ لمحبتها تمنعني من الخروج، فأقعد حفظاً لقلبها، ولا أظهر لها من البغض شيئاً، وإني على جمر الغضب من بُغضها، قال: فبقيتُ هكذا خمس عشرة سنة حتى ماتت، فما من عملي شيء هو أرجى عندي من حفظي لقلبها! الله الله الله !! كم كان هذا الرجل كبير القلب عظيم الطوية!!! مَن منا يستطيع أن يفعل فعل هذا الرجل؟ من منا لديه صبر هذا الرجل؟ من منا يستطيع أن يتعامل مع الله بهذا السمو ؟ فعلاً... أتذكر شِعراً يشرح ربما بعض مما نحن بصدده ويفسره:

وإذا كانت النفوسُ كباراً.....تعبت في مرادها الأجسادُ

وَكَذا تَطْلُعُ البُدورُ عَلَيْنا ... وَكَذا تَقْلَقُ البُحورُ العِظام[1]

[1] - (المتنبي)

يرحمك الله يا أبا عثمان ويغفر لنا الأنا وحب الدنيا، فالصبر على سوء خلق الزوجة إرضاءً للربِّ، وحفظاً لقوام الأسرة شيمة النفوس الكبيرة، "وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيرا كثيراً"، والحقيقة التي لا مراء فيها ... لا تكن المرأةُ امرأةً بمعانيها إلا إذا وُجِدَتْ في قلبٍ يعشقها، رجلها أو طفلها أو كلاهما.

همسة... لم يخلقها مِن قدمِه فيختالُ عليها، ولم يخلقها مِن رأسِهِ فتتعالى عليه، بل خلقها من ضِلْعِهِ لتكونَ تحت جناحِه ابنة وأختاً، وفي فؤاده أُمّاً وزوجة، إنها حواءُ، الجو الإنساني لكلِّ آدم، لا يكرمها إلا كريمٌ ولا يهنها إلا لئيمٌ، واعلمي يا بنية أنَّ الزوجة الكاملة لا تكملُ الحياةُ بها إلا إذا كانت مع رجلها كالأم مع ولدها، تقبله على أي نحوٍ كان، والحياة في هذا الجو الإنساني ممكنة السعادة مهما قلَّت أسبابها، وكلُّ شقاء هنا محتملٌ، فأجملُ البيوت ما قام على المودة والرحمة، فقيمة الورد تتجلى في رائحته وحياته، وليس قيمته أن يكون جامداً ويصنع من مادةٍ ويشدُّ بالخيط، ويظهر كصورة بلا ثمرة ورائحة؛ وأجملُ النساءِ إذا تكلمتْ همستْ، وإذا رضيت سجدت شكراً، وإذا غضبت لاذت بالصمت خشوعاً، وإذا ضحكت أو تبسمت كأن حياءها يتواضع، فهي في حقيقتها شخص المعاني والأفكار لا شخص الإنسان والأوطار، فيحبها رجلها في فكره وشعوره قبل أن يحبها في نظره وحضوره، ويقبلها هو الآخر على أي نحو كانت، تحسبها تحترق ولا تعيش، فهي الأخلاق تتكلم، وعندها يتصاغر الكبير، ويتضاءل العظيم، ويتقازم العملاق وتتورع الخواطر، فمعاني نفسها تنتشر في الهواء ولو كانت طريحة الفراش، كالريح المرسلة التي لا تُمسك، الآمرة التي لا تُردُّ، وتقبيل رجلها يدها من قبيل تقبيل الفارس المنتصر في معركة الحياة لسيفه في كلِّ غزوة أو عقب كل معركة أو معتركٍ، ويظلُّ مصباحُها وهاجاً مهما طرحوا عليه من ثيابٍ أو ترابٍ.

وجاذبيةُ الرجلِ للمرأةِ هي ذاتها جاذبية الأكسجين للهيدروجين، فيتحد هذان ويؤلفان المحبة كما يتحد الآخران فيؤلفان الماءَ، والماءُ حياةُ الأبدانِ، والمحبةُ حياةُ القلوب، إنه قانونُ... الذي قدر فهدى؛ وامتزاجُ الحبِّ بين نفسين أشبهُ بامتزاج ماءٍ بماءٍ، وكما يصعبُ فصلُ الماءِ عن أخيه، محال فصل الحبِّ بين نفسين لأن النفسَ ألطفُ هيئةٍ، وأرقُّ مسلكاً؛ يا أنا ...أعظمُ بِناءٍ وبَنَّاءٍ مَنْ بنى جِسْراً بين القلوبِ !فهذا رسـولنا ﷺ يقـــولُ: ألا لا إيمانَ لمنْ لا محبة له"؛ فإنْ لم نحب بعضَنا سنفيقُ على أشلائنا لذا:

لكلِّ وطنٍ رائحةُ ليلٍ خاصة به تؤرقُ ليلَ كلِّ مغتربٍ.
ولكلِّ أم حنانٌ لا تعوضه نساءُ الكون.
ولكلِّ حبيبةٍ حضورٌ كلحظاتٍ من الجنان مسروقة.
ولكلِّ زوجةٍ أمانٌ وسكنٌ ومودةٌ في حقيقتها فلسفة الكون وجماله.
فقد يهونُ العمر إلا ساعة ... وقد تهونُ الأرضُ إلا موضعا(شوقي)

المحن والثبات

والنفسُ العاليةُ لا تخضعُ للحوادثِ مهما جَلَّ خَطْبُها، ولا تتأثرُ بالملماتِ مهما عَظُمَ شأنُها، بل تزيدها النوائبُ قوةً ومراساً، فهي بين الناسِ كالأسدِ بين السباعِ، لا تقع عينُه أو مخالبُه على فريسةِ غيره مهما قرَّحَ الجوعُ مَعِدتَه، وغايتُها عفوَ المتعالِ في مطارحِ الاعتقال، لذا تجد في أصغرهم أجملَ ما رأت عينُكَ صورة، وأرقَّ ما عرفتِ نفسُكَ شمائلَ، وأعذبَ ما سمعت أُذنُكَ حديثاً، وأوضأَ مَن شاهدت ذاتكَ ثغراً؛ لكِ الله يا دعوة الخالدين!

ما أشبه المؤمن في دنياه بحبةِ القمح بين فكيِّ رحى! فطحنُ الرَّحى لحبة القمح تهذيبٌ لها وتعلية لقيمتها وقدْرها، حتى تتحول إلى طحينٍ نافع يخدم الأبدان، كذلك ابتلاءاتُ المؤمن ترفق به رفق الرحى لتحوله إلى إنسانيته الحقة؛ وتنفي عنه خبثه كما تنفي النار الشوائب عن الذهب؛ والله يبتلي ليهذب لا ليعذب؛ والآن أسأل... هل القمحة تخشى رحاها كما يخشى المرء موته؟ لا أظنُّ ذلك أبداً، ولو قُدِرَ لحبة القمح أن تتكلمَ لقالت: متى أُطحن لأصير عجيناً يُنتفع به؟ بل تشتاق لهذا الموعد وتتيه على مثيلاها اللاتي لم ينلن شرف الطحن، لكن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يتفادى الطحن ويخشى الموت، وحين يموت الإنسان فالحقيقة العارية أن خوفه من الموت هو الذي مات واتصلت حياته بقانون آخر، كما تحولت القمحة إلى طحين، فكلُّ حي يدبُّ دبيباً على أديم الأرض هو في حقيقته قبر يتحرك، وحين تجمع الأقدار أرقامه أو تطوي كتابه أو تحل مسألته يتحول من قبر متحرك إلى لَحْدٍ ساكن لمن يراه، لكنه اتصل بحياة من نوعٍ آخر غير مدرك .

وثمة خيطٌ رقيقٌ وغيرُ مرئي بين السماءِ والنفسِ لا ينفصمُ، وهذا الخيط له قدسية خاصة، وموقعه في الذاتِ أشبه بالكعبة في الوجدان، وبالمسجدِ في القلبِ، وفضيلةُ كلِّ نفسٍ أشبه بفتيلةِ كلِّ قنديلٍ، فلا قيمة للمصباحِ دون فتيلة، ولا قيمة للنفسِ دون فضيلة، ويظلُّ المرءُ يفتلُ هذا الخيط ويتعلق به ويسير على هديه حتى يتبينَ له عروجُ نفسه في كلِّ صلاةٍ، فيصبحُ دربُه بين السماءِ والأرضِ آمناً ومألوفاً ومسلوكاً، فما جاء مِن الغيبِ يرده إلى خالقِ الغيبِ، وكلُّ بلاءٍ يفتح له طريقاً عبر خيطه أو سبيله قوامه الصبر، لا يتبرم ولا يتضجر ولا يتأففُ، فتتنزلُ من السماء رحماتها ونفحاتها لنكتشفَ أن المصيبة ليست في المصيبة، إنما في ضعفنا وجهلنا وغفلتنا، وقد قيل لرجلٍ فقد ابنه لم لا تجزع؟ فقال: هذا أمر توقعناه ... فحين حدث استرجعنا ولا نفزع؛ ومن غاية الرضا أن تستمتعَ بما أنتَ فيه؛ فأيما رجل أُصِيبَ فحمد واطمأن... رضي فاستمتع، ولا يصح إسلامُ المرءِ إلا إذا شعر أن قطعة من السماء تحيا في أعماقه، والإسلامُ في حقيقته.... الحدُّ القائمُ والسور المضروب بين النفسِ وشهواتِها، وبقدرِ استقامتكَ في الدنيا تكون استقامتكَ على الصراطِ في الآخرة. فهل يستقيم الطاغوت أو يتوب؟ نسألُ الله الثباتَ.

وحريٌّ بالمؤمنِ أن تُقدرَ ثروته لا بماله ولا عياله ولا جاهِه، بل بعددِ الأشياء التي يستطيعَ العيشَ دونها، ففي معيةِ اللهِ يظهرُ جمالُ الفقر كاسياً، ويبدو ضيقُ الاعتقال دواءً لجلِّ الأوجاع الإنسانية، ومناجاة الله ثمة في ليلةٍ باردة حالكةٍ تكشفُ الحكمةُ التي غابت في جماجم آبائنا الأولين؛ وما نملكُه على وجهِ اليقين هو ما يمكننا الاستغناء عنه، فجميعُ ما نحتاجه يصرفنا إليه، وتضيع حياتنا في طلبه وأسبابه، وجميع ما في حوزتنا يُصلحنا إن قلَّ، ويفسدنا إن كثُرَ... فأكثرُ الناس عبدٌ لمن يُطعمه، وأولى به أن يكونَ عبداً لربِّ من يطعمه؛ اخشوشنوا يرحمكم الله فإن النعمة لا تدوم.

اعلمي رعاكِ الله أن المصائبَ نفسها لا تخلو من وجهٍ جميلٍ، فهي ليست قبحاً صرفاً ولا شقاءً خالصاً، بل كثيراً ما تكون بلسماً كما تكون جروحاً، ودواءً كما تكون داءً، والليونة والميوعة والرخاءُ قد تفسد الطبيعة البشرية فلا بد لها من شقاءٍ يصلحها، والحديدُ قد يفسد ويعلوه الصدأ وتنخر فيه سوس الرطوبة، ويأتي على صلابته دُودُ التضاريس؛ فلا بد له من نارٍ تذيبه حتى تصلحه، وتُذهِبَ خبثه، فكذلك النفوس قد يطغيها النعيمُ وتصدأ من الترفِ،

فلا بد لها من نارِ الابتلاءِ تُكوَى بها لتنصهرَ ويذهبَ رِجْسُها، وإذا أردتِ أن تعرفي نفوسَ الناسِ حقّاً ففي أوقاتِ المصائب لا أوقاتِ النعيم، ونفسكِ التي بين جنبيكِ أشبه بالأرض وأنتِ زارعةُ هذه الأرض، يتخيرُ الزارعُ الأرضَ الطيبة، وكلما رأى فيها شائبة نحاها، ويسقيها ويقلبها ويتعاهدها بالرعاية، فحين تضربين بفأسكِ في أرضك لتزيلي شوائبها فأنتِ تمهدي لزرعها الخير والهواء والغذاء الذي يصلحها، وهكذا الرب يتعهد قلبَ عبده فيخلصه من أوساخ الدنيا ويسقيه ماء التوبة والإنابة، ويُقلِّب فؤاده بالابتلاءات والشدائد حتى يكون القلبُ أهلاً بمحبة خالقه، فالمحبة لا تُلقى إلا في قلبٍ طاهر... سُئل الحسن البصري –رحمه الله–: أين تجد الراحة ؟ فقال : سجدة بعد غفلة، وتوبة بعد ذنب.!

وأتعجبُ! كلنا إلا من رحم في الشرِّ أجرى من جواد، وفي الخير أبطأ من أعرج، يغشانا التثاؤبُ بمجرد دخولنا في الصلاة، وتأتي الذبابة على أنفنا لتضيع علينا الدقائق في معية الله، لكن حين ننتهي من الصلاة يذهب التثاؤبُ وتغيب ذبابتنا ملتصقة بالسقف، معاصينا لولا رداء الستر من الله أشهر من الشمس، وتوبتنا أخفى من السُّها، والعفو عندنا أثقل من جبل أُحد، والتسامح علينا ثقيلٌ كثقلِ السُّكْرِ على عقلٍ، صدرنا عند حديث الدنيا أوسع من البحر والمحيط والنهر، ووقت العبادة أضيق من سّمِّ الخياط، ورغم كل تقصيرنا ... الله يبتلي ليهذب لا ليعذب، وعلى قدر القرب من الله يكون الابتلاء.

وقال ابن القيّم رحمه الله:" لو كَشف الله الغطَاء لِعبده و أظهر له كيف يُدبِّر له أموره؟ و كيف أنَّ الله أكثر حرصاً على مصلحة العبد من نفسه؟ و أنه أرحم به من أمِّه؛ لَذاب قلبُ العبدِ محبة لله ولتقطَّع قلبه شُكرا لله".

وعندما أسرت الروم عبد الله بن حذافة السهمي فقال له الطاغية: تنصَّر وإلا ألقيتك في البقرة (وعاء من نحاس)، قال: ما أفعل، فدعا بالبقرة النحاس فمُلئت زيتاً، وأُغليت، ودعا رجلاً من أسرى المسلمين فعُرض عليه النصرانية، فأبى، فألقاه في البقرة فإذا عظامه تلوح، وقال لعبد الله: تنصَّر وإلا ألقيتك، قال: ما أفعل، فأمر به أن يُلقى في البقرة فبكى، فقالوا: قد جزع؛ قد بكى؛ قال: ردوه، فقال عبد الله: لا ترى أني بكيت جزعاً مما تريد أن تصنع بي، ولكني بكيت لأن لي نفساً واحدة، كنتُ أحبُّ أن يكون لي من الأنفس عدد كلِّ شعرة فيَّ، ثم تُسلَّط عليَّ فتفعل بي هذا، قال: فأُعجِبَ منه؛ وأحب أن يطلقه، فقال: قبِّل رأسي

وأطلقك، قال: ما أفعل، قال: قبِّل رأسي وأطلقك وأطلق معك ثمانين من المسلمين، قال: أما هذه فنعم، فقبل رأسه وأطلقه وأطلق معه ثمانين من المسلمين، فلما قدِموا على عمر بن الخطاب ﷺ قام إليه عمر فقبَّل رأسه، قال: فكان أصحابُ رسول الله ﷺ يمازحون عبد الله فيقولون: قبَّلت رأس علج، فيقول لهم: أُطلِق بتلك القبلة ثمانون من المسلمين[1].

إنها يد القدرة التي صاغت هذا المشهد لابن حذافة السهمي لنرى من خلاله الثبات على أجمل ما يكون؛ وكيف ماتت كلُّ شهوات النفس في ذاته وكأنه ضربٌ من الخيال الملائكي؟ فعلى كلِّ من تعرض لابتلاءٍ أن يستحضر هذا المشهد ويتصور ردة فعله كيف تكون؟ حين تسيطر الروح على الجسد لا تشعر بألم، بل العكس هو ما يكون، كل ما نراه من آلام يسشعره المبتلى في معية الله منتهى اللذة؛ نسأل الله الثبات لنا ولكم في الدارين؛ فلكلِّ مُبْتلى أقول: صبراً واحتسبْ، والعاقبة للمتقين، ولعل الخير يكمنُ فيما نعتقده شرّاً؛ وقوة العظم وقوة الإرادة متى اجتمعتا فلن يقدر عليهما أحدٌ، وقد ينكسر العظم والبدن، لكن تبقى الإرادة تنبض وتؤمن بفكرتها، وإذا تكسرت قوة الجسم والإرادة عند المرء تلاشى وجوده، فيا أيها الطاغوتُ لكَ اللحم والعظم قد تنال منهما، لكن ستظلُّ عاجزاً عن كسر إرادتنا مهما فعلت... ولله دره القائل: إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبُ

وَضَاقَ بِمَا بِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيبُ

وَأَوْطَنَتِ الْمَكَارِهُ وَاطْمَأَنَّتْ

وَأَرْسَتْ فِي أَمَاكِنِهَا الْخُطُوبُ

وَلَمْ تَرَ لانْكِشَافِ الضُّرِّ وَجْهًا

وَلاَ أَغْنَى بِحِيلَتِهِ الأَرِيبُ

أَتَاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنْكَ غَوْثٌ

يَمُنُّ بِهِ اللَّطِيفُ الْمُسْتَجِيبُ

وَكُلُّ الْحَادِثَاتِ إِذَا تَنَاهَتْ

---

(1) أسد الغابة لابن الأثير (597/1، 11/3، 212)، معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني (11 / 352 رقم 3608)، تاريخ دمشق – (27 / 359).

فَمَوْصُولٌ بِهَا فَرَجٌ قَرِيبُ[1]

ومن رحمتها بنا تصفعنا الأقدارُ لنعود إلى وعينا، ولنرى الأمور على وجهٍ مخالف، إنها المنحة في ثياب محنة، وإنه العطاءُ حتى في أوج المنع، والابتلاء سمتُ الأنبياء والصالحين والمصلحين، وعلى قدر الصلاح يكون الابتلاء، وعلى قدر المعية يكون التثبيت والثبات من الله، وفي محنة خلق القرآن طُلِبَ من الإمام أحمد أن يتأولَ ببعض الكلام لعلّ الخليفة يعفيه من السجن والتعذيب، أخذ بأيديهم إلى نافذة السجن فإذا بخلقٍ كثير كلُّ منهم أمسك بورقةٍ وقلم ليكتبَ ما يقول الإمام، فأبى إلا أن يكون من أهل العزائم !! لأن خطأ القدوة قد يؤدى إلى فتنةِ كثيرٍ ممن يقتدون به، فاحرصي على من تتعلق قلوبهم بكِ وترنو أنظارهم إليكِ، لأن المقتدين بكِ يريدون أن يروكِ فى غضبك ورضاك، وفى حكمك على الأشياء وحسمك للأمور، وفي رقتك ولينك وتضحيتك، وفي أملك وثقتك بالله، وفي التأني والتروي وعدم الاستعجال، وفى رعايتك لحقوق إخوانك وانشغالك بدعوتك !! وفي تجردك من كلِّ شيء إلا حول الله وقوته، وفي تواضعك وخفضك لجناحك، وفي عبادتك وخشوعك، وفي انتقائك لألفاظ كلامك وإنكارك لذاتك، وفي ملبسك ومظهرك، وفي معاملاتك المالية!

وروى ثابت البناني فقال: "كان سلمان الفارسي أميرًا على المدائن، فجاء رجلٌ من أهل الشامِ ومعه حِملُ تِبْنٍ وعلى سلمان "لباس الفقراء" وعباءة، فقال لسلمان: تعال احملْ وهو لايعرفه، فحمل سلمانُ، فرآه الناس فعرفوه فقالوا: هذا الأمير، فقال: لم أعرفك؛ دعه عنكَ؛ فقال له سلمان: لا، حتى أبلغَ منزلك، وفي رواية أخرى: إني قد نويت فيه نية فلا أضعه حتى أبلغ بيتك"، وهذا مثالٌ نادرٌ من التواضعِ من سلمانَ ﷺ، وهو أميرٌ على المدائنِ عاصمة مملكة الفرس يلبسُ لباسَ الفقراءِ حتى ظنَّهُ الرجلُ ممن يحملون الأمتعة للناسِ فحمَّله ما معه من التبن، وبعد أن عرفَ الرجلُ أنه الأميرُ واعتذر منه أبى إلا أن يستمر حتى يوصله منزله لأنه نوى في ذلك عملاً صالحاً لله تعالى، فـكَرِهَ أن يقطع ذلك العمل؛ هل تنعم علينا الدنيا فنجد الأمير المتواضع؟ أم أن سلمان ﷺ وأصحابه كانوا ضرباً من الخيال؟

ومهما كان الشخص في نفسه هيناً فلابد من أناس ولو قلُّوا تنظر إليه بعين القدوة! وأفضل الجهاد كلمة حقٍّ عند سلطان جائر، فهكذا حال المؤمنُ يقضي حياته كنباتٍ طيبٍ بين فأسٍ تحرثه ومنجلٍ يحصده وآفاتٍ تنغصه، ورغم ذلك يُخَيَّلُ إليكِ أن الناسَ قعودٌ وهم بجواره ثابتاً لا يخشَ إلا خالقه، ودائماً شعاره:

وأنى تضيق بنا أرضنا، ونحن نصلي إلى ربنا ؟! ولا كربَ وأنتَ ربٌّ.

---

[1] - (علي بن أبي طالب)

رأى الصِّديقُ طائراً فقال: طوبى لكَ يا طائرُ، تقعُ على الشجرة، وتأكلُ من الثمرة، ولا حساب عليكَ، ليتني كنتُ مثلكَ، وقال عمرُ: ليتني كنتُ نبتةً، ليتَ أمي لم تلدني، وقال ابن مسعود: وددتُ أني إذا مِتُّ لا أُبعثُ، وقال عمران بن حصين: ليتني كنتُ رماداً، وقال أبو الدرداء: ليتني كنتُ شجرةً تُعضدُ، وقالت عائشة: ليتني كنتُ نسياً منسياً، هؤلاء الصحابة ﷺ من تأمل حالهم وجدهم غاية في العمل مع غاية الخوف والرهبة، ونحن بين التفريط والأمن نحيا جميعاً وكأننا لن نموت ولن نُحاسب.

لكنه الدين حين يحكم ويسيطر على النفس يثمر طاقة روحية لا سقف لها تدفعه للقيام بتبعاتٍ فوق واجبه، وحضرتْ الخنساءُ بنت عمرو حرب القادسية 16 هـ، ومعها بنوها أربعة رجال فذُكِرَ موعظتها لهم، وتحريضهم على القتال وعدم الفرار، فقد حرَّضت أبناءها الأربعة على الجهاد ورافقتهم مع الجيش زمن عمر بن الخطاب، وقد أوصتهم بأبلغ وصيةٍ فقالت: "يا بَني إنكم أسلمتم وهاجرتم مختارين، واللهِ الذي لا إله غيره إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنتُ أباكم ولا فضحتُ خالكم، ولا هجَّنتَ حسبكم ولا غيرتُ نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، ويقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[1]، فإذا أصبحتم غدًا إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، وإذا رأيتم الحرب قد شمَّرت عن ساقها واضطرمت لظى على سياقها، وجلَّلت نارًا على أوراقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقام". فلما بلغ إليها خبر وفاة استشهادهم جميعاً، لم تجزع ولم تبك، ولم تحزن، قالت قولتها المشهورة" :الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته "وكان عمر بن الخطاب يعطي الخنساءَ أرزاق أولادها الأربعة حتى قبض ﷺ"[2].

والانتماء إلى الإسلام يعنى التسليم لمقادير السماء، فالله يبتلي ليهذب ولا يبتلي ليعذب، وقال الحسن البصري:" المؤمن يعملُ بالطاعات وهو مشفقٌ وجلٌ خائفٌ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمنٌ"[3]، لذا علينا مراجعة منهج التربية الإيمانية والروحية في حياتنا دائماً وردها إلى الأصول الشرعية، وهذه التربية لا تنقطع ولا تتوقف عند لحظة من لحظات الحياة، لأن الأمر الذي استوجبها لا ينقطع، ولأن القلب البشري سريع التقلب، سريع النسيان، وهو يشفُّ ويشرق فيفيض بالنور، فإذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تذكر تبلد وقسا وانطمست إشراقته، وأظلم وأعتم، فلابد من اليقظة الدائمة كي لا يُصاب بالتبلد والقسوة، واعلمي أن أذية الناس لكِ وخصوصاً في الأقوال

---

[1] - (آل عمران: 200)

[2] - (ذكرها ابنُ حجر في كتابه (الإصابة في تمييز الصحابة)... (بتصرف يسير)

[3] - (تفسير ابن كثير (2/ 234)

السيئة لا تضرك، بل تضرهم، إلا إذا أشغلتِ نفسكِ في الاهتمام بها، وسوغتِ لها أن تملك مشاعرك، فعند ذلك تضرك كما ضرتهم، فكوني كالنخلة، يقذفها الناس بالحجر ولا تعطي إلا أطيب الثمر.

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: "لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه"[1]، ومن نتائج الإيمان في النفس... التعامل مع أحداث الحياة وتقلباتها المختلفة تعاملًا إيمانيًّا، وقال ﷺ: "عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ولا يكون هذا إلا للمؤمن، إن أصابته سراءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيرًا له"[2]، فهكذا المسلم يشعر بتقصيره وذنوبه، وبضاعةُ المذنبِ دمعاتٌ تسيل على خدّهِ في جوف الليلِ، وما لهُ من مالٍ سوى حُزنهُ، ويكادُ قلبهُ أن يفلقَ كبده، ومع كلّ شهقةٍ يرقبُ برقَ العفو، لذا فهو لا يبرحُ باب التذللِ، لكنه مع ذلك يحسن الظن بخالقه، ويرجو عند كلِّ ضيقٍ مخرجاً، ويقينه...عند انسدادِ الفُرَجِ تبدو مطالعُ الفَرَجِ، عن عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – أنه قال:" إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعدٌ تحت جبلٍ يخافُ أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذبابٍ مَرَّ على أنفه فقال به هكذا"[3]؛ ويظل حاله بين رغبة ورهبة إلى أن يلقى خالقه، فالمؤمن لا تقر عينه ولا تستريح نفسه إلا عند دخوله الجنة، فالجنة موطن أبينا آدم، والأوطار إنما تُطلب في الأوطان، أما الدنيا فهي دار غربة منذ أُهبط إليها الأبوان، ولله در الشاعر حين يقول[4]:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحبُّ إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لأول منزلِ

وابن القيم في ميميته يقول: فحيَّ على جنات عدن فإنها ... منازلنا الأولى وفيها المخيمُ

ولكننا سبي العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلم

والحرص على مصاحبة الأخيار ديدن المسلم، فالرسول ﷺ يقول: "الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل"[5]، والتمسْ لأخيك عذراً إلى سبعين عذراً، فشيمتنا ألا نعاتب في كل صغيرة وكبيرة، وغضُّ الطرفِ عن الزلات، فإن الكمال لله، والأخ الصديق عليك به، فإنكِ إن ضيعته فقد لا تجدي من يشاركك هموم الحياة

---

[1] - (رواه أحمد والطبراني)

[2] - أخرجه (مسلم)

[3] - (البخاري – الفتح 11 (6308)

[4] - (أبو تمام)

[5] - (رواه الترمذي)،

ويدلك على الخير، وما أجملَ أن نَمحي الخطأ من أجل أستمرار المحبة؛ وليس أن نَمحي المحبة من أجل الخطأ، فانصح ولا تفضح ، وعاتب دون أن تجرح، وتغافروا ولا تلاوموا.

وقال عبد الله بن جعفر:" عليك بصحبة من إذا صحبته زانك، وإن غبت عنه صانك، وإن احتجت إليه أعانك، وإن رأى منك خلة سدها أو حسنة عدها وأصلحها"؛ "وقال ذو النون المصري:" لا خير في صحبةِ من لا يحبُّ أن يراكَ إلا معصوماً، ومن افشى السرَّ عند الغضب فهو اللئيم، لأن إخفاءهُ عند الرضا تقتضيه الطبائع السليمة كلها"[1]، هي الدنيا مهما حلت أوحلت ومهما قربت بعَّدت، وكلُّ فرحٍ فيها مصحوبٌ بكدر، وكم من الأشياءِ تفرحُنا! ثم هي ذاتها تبكينا أو نبكى عليها، وقال عليٌّ ﷺ:" من وُسِعَ عليه في دنياهُ، ولم يعلم انه مُكِرَ به فهو مخدوعٌ عن عقله"[2]، إن التي يُباع فيها " يوسفُ" بدراهمَ، وهو من هو؟ وابن من هو؟ وسبط من هو؟ حقيق ألا نحزن عليها ولو عشنا في قاع الجبِّ إلى أن نموتَ.

إنها دُنيا!! وهذا ابنُ السماكِ[3] يعطينا الدرس في الدنيا وقيمتها، حين دخل على هارون الرشيد وفي يده شربة ماءٍ فقال: أرأيتَ إن حُرِمت هذه الشربة بكم تشتريها؟ قال: بنصف مُلكي، قال أرأيتَ إن حُرمت خروجها منكَ بعد شربها فبكم تشتري ذلك؟ قال: بملكي كله! قال ابن السماك: ملكٌ لا يساوي شربة وبَوْلَة.

وفي قصيدته(لكلِّ شيءٍ إذا ما تمَّ نقصانُ) يقول الشاعر[4]:

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصانُ...   فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسانُ

هي الأيامُ كما شاهدتها دُولٌ...   مَن سَرَّهُ زَمنٌ ساءَتهُ أزمانُ

وهذه الدار لا تُبقي على أحد...ولا يدوم على حالٍ لها شان

وسعادة المرء فيها حين تنتصر فكرته ويعمل من أجلها، فالأفكار النبيلة محلها القلوب، ولا تفنى بفناء صاحبها، وهي كفسيلة النخل التي تثمر ولو بعد حين، لكن على المرء غرسها، وليس عليه جني ثمرتها، والنصر الحقيقي حين تنتصر الفكرة التي يحملها المسلم وإن تعرض في سبيلها للأذى والاضطهاد، فلقد وقع بعض المسلمين شهداء في مكة مثل ياسر وسمية بنت خياط دون أن يروا للإسلام دولة وكتب الله لهم الشهادة، وانتصر الإسلام، وقامت له دولة باقية إلى قيام الساعة، فالمؤمن بين نصر وتمكين، إن كتب الله له الحياة، وبين دخول الجنة إن نال الشهادة في سبيله، وحياة الإنسان الحقيقية تبدأ بعد موته... فاختر لنفسك أيَّ حياةٍ تحب أن تعيشها.

---

[1] - (ذكره الغزالي في الإحياء 2/ 195).

[2] - (تفسير ابن كثير(485/1)

[3] - (اسمه الحقيقي محمد بن صبيح)

[4] - أبو البقاء الرندي

وهذا ابن رجب يقول: "الوصول إلى الله نوعان: أحدهما في الدنيا، والثاني في الآخرة، فأما الوصول الدنيوي فالمراد به: أن القلوبَ تصل إلى معرفته، فإذا عرِفته أحبَّته وأنِست به، فوجدته منها قريباً، ولدعائها مجيباً"، كما في بعض الآثار: ابن آدم... اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدتَ كلَّ شيء، وإن فُتُّك فاتك كلُّ شيء، وأما الوصول الأخروي: فدخول الجنة التي هي دار كرامة الله لأوليائه، ولكنهم في درجاتها متفاوتون في القرب بحسب تفاوت قلوبهم في القرب من الله.

والذي يُحرك الأحداث ويُنشئ النتائج هو الله عز وجل، والبشر ستار لإظهار قدرته وربوبيته، والتعلق بغيره شرك، والافتقار إليه هو الغنى، وتظهر ثمار الاستغناء عن الناس تبعاً لنمو الإيمان الحقيقي في القلب وتعلقنا بربِّ الناس، ونستعين بذلك بقيام الليل سنة الأولين وشرف المتأخرين، فقيام الليل شرف المؤمن، وهل هناك أغلى وأنفس من شرفه؟ تأملي...عجبَ ربنا من رجلٍ ثارَ عن دِثارِهِ ولِحافِهِ إلى صلاته، يا الله!! معنى ثارَ!! إنه يعني الإسراع خشية أن يفوته أمرٌ جلل، ولم يقل قامَ، فالقيامُ قد يقع وبه الفتور والخمول، لكن ثار ينتفي معها كلُّ أمور الدعة والكسل والتثاؤب، والآن أسأل: هل جربتِ أن تثوري عن وطأتكِ ولحافكِ من قبل؟ وهذا الذي يعلنها مدوية "قومي والله لأزحفنَّ بكِ إلى الله زحفاً! أيظن أصحابُ مُحَّد أن يستأثروا به دوننا، والله لنزاحمنهم ! مخاطباً رجليه في قيام الليل[1]! وهذا سفيان الثوري يقول:" لا تبغض أحداً ممن يطيع الله، وكن رحيماً للعامة والخاصة ولا تقطع رحمك وإن قطع، وتجاوز عمن ظلمك تكن رفيق الأنبياء والشهداء"، أي مكانة أفضل من هذه المكانة؟ وأي منزلة تقترب لهذه المنزلة؟ وأي شهادة تعدل مرافقة الأنبياء والشهداء؟

وهذا سعد بن أبي وقاص ﷺ وهو من هو! وعُرف عنه أنه مُستجاب الدعوة يعطينا درساً في همم الرجال، وحب الابتلاء الذي يورث العزة والكرامة فيقول: لما كانت (أحد) لقيَني عبد الله بن جحش وقال: ألا تدعو الله ؟ فقلتُ: بلى؛ فخلونا في ناحية، فدعوتُ، فقلتُ: يارب إذا لقيت العدو فلَقِّني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده، أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله وآخذ سلبه، فأمَّن عبد الله بن جحش على دعائي، ثم قال: اللهم ارزقني رجلًا شديداً حرده، شديداً بأسه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً قلت: فيم جُدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت! قال سعد: كانت دعوة عبد الله بن جحش خيراً من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار، وإن أنفه وأذنه لمعلقان في خيط[(2)].

وأشرفَ العبادات تَوَجُّهُ القلب بهمومه كلِّها إلى مولاه، فإذا نزل به ضِيقٌ انتظرَ فرجَه منه لا ممَّن سِواه، قيل لزيد بن مزيد: ما لنا نراك باكياً وجلاً خائفاً؟ فقال:" إن الله توعدني إن أنا عصيته أن يسجنني في النار، والله لو لم

---

[1] - "أبو مسلم الخولاني"

(2) أخرجه البيهقي في سننه (307/6)، والحاكم في المستدرك (86/2) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه، وأورده الذهبي في السير (112/1).

يتوعدني أن يسجنني إلا في الحمام لبكيت حتى لا تجف لي عبرة"، وقالتْ عابدةٌ:"واللهِ لقد سئمتُ الحياةَ حتى لو وجدتُ الموتَ يُباعُ لاشتريته شوقاً إلى الله وحبّاً للقائِه، فقيل لها: على ثقةٍ أنتِ من عملكِ، قالتْ: لا واللهِ، لحُبِّي إياهُ، وحُسن ظنّي به، أتراه يعذبني وأنا أحبه؟" اللهم إنا نحسنُ الظنَّ بِكَ.

والعجبُ كل العجب ممن يشتري شهوة ساعة بغمِّ الأبد! إنما يضل المسافر في سفره يوماً أو يومين، ثم يقع على الجادة فيحمد ربه أن هداه، وعجباً ممن يتيه سنوات في لجة الأفكار العبثية، والليبرالية والعلمانية والماركسية ويجني منها مُرَّ الثمر، ولا يقع على جادة الحق والفضيلة، فيرى الحقَّ أبلجَ!، وهذا الإسكندر قيل له: إن فلاناً وفلاناً ينقصانك ويثلبانك فلو عاقبتهما، فقال: هما بعد العقوبة أعذر في تنقصي وثلبي، فكان هذا تفضلاً منه وتآلفاً.

وحين تكثر الفتنة حولكِ فاعتزالُ الناس أخفُّ الضررين، والتزام الصمت منجاة، ويصعب تأويله، وهو أفضل جواب لكثير من الأسئلة، وقيل عنه أنه العلمُ الأصعب من علم الكلام، وحصائد الألسنة تكون سبباً في كبِّ الناس على وجوههم يوم القيامة؛ وجاءَ رجلٌ إلى الفضيلِ فجلسَ إليه فقالَ له: ما أجلسكَ إليَّ؟ قالَ الرجلُ: رأيتك وحدكَ؛ قالَ له: إمَّا أنْ تقومَ عني أو أقومَ عنكَ؛ قالَ الرجلُ: أقومُ وأوصني؛ قال الفضيلُ: أخفِ مكانكَ واحفظْ لسانكَ! هذا على أيامِ الفضيل، فما بالنا بأيامنا؟ أظنه زمنَ السكوتِ إلا عن قولة الحقِّ، ولزومَ البيوتِ إلا أنْ تسعى في خيرٍ، فصوامعُ المؤمنين بيوتهم.

وسأل عليٌّ ﷺ عامرَ بن مرّة الزهري: من أحمقُ الناس؟ قال: مَنْ ظنَّ أنه أعقلُ الناس؛ قال: صدقتَ، فمَنْ أعقلُ الناس؟ قال: من لم يتجاوز الصمتَ في عقوبة الجهال؛ وقال هذا المعنى أحد الشعراء:

وفي الحلم ردعٌ للسفيه عن الأذى ... وفي الخَرق إغراء فلا تكُ أخرقا

فتندمَ إذا لا ينفعَنْكَ ندامةٌ ... كما ندم المغبون لما تفرّقا[1]

وحذر الشيخ أبو علي الدقَّاق فقال رحمه الله : " لو كنتم تشترون الكاغدَ (الورق) للحفظةِ لسكتُم عن كثيرٍ من الكلام"؛ وأظنُّ أغلبنا إن لم يكن كلنا ستأتي عليه لحظةُ العضِّ على الأنامل؛ اللحظة التي يقولُ فيها: ليتني ما عرفتُ للكلامِ سبيلاً ولم أنطقْ، والموتُ بداءِ الصمتِ خيرٌ من الموتِ بداءِ الكلاموقال الشاعر[2]:

يموتُ الفتى من عثرةٍ بلسانه ....وليس يموتُ المرء من عثرة الرِّجْلِ

فعثرته من فِيه ترمْي برأسه .... وعثرته بالرِّجْلِ تبرأ على مَهْلِ

وهذا أبو العتاهية يقول:

يخوضُ الناسُ في المقالِ ليوجزوا ....ولَلصَّمْتُ عن بعضِ المقالاتِ أوجزُ

---

[1] - (العقد الفريد لابن عبد ربه(1/180)

[2] - (جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب)(العقد الفريد)

وجالس أعرابيٌّ الشعبي فأطال الصمتَ، فقال له الشعبي يوماً: لما لا تتكلم؟ فقال: أسمعُ لأعلمَ، وأسكتُ فأسلمَ، ولله در الشاعر حين قال[1]:

استرِ النفسَ إن استطعتَ بصمتٍ ...إن في الصمتِ راحةً للصَّموتِ

واجعل الصمتَ إن عَيِيتَ جواباً ....رُبَّ قولٍ جوابُهُ في السُّكوتِ

وقال عبد الله بن المبارك: قلتُ لسفيان الثوري: يا أبا عبد الله ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة، ما سمعته يغتاب عدوّاً له قط، فقال: هو أعقل من أن يسلِّطَ على حسناته ما يُذهبها؛ وقال مخلد بن الحسين:" ما تكلمتُ بكلمةٍ أريدُ أن أعتذر منها منذ خمسين سنة".

همسة... والذي وقع في أزمة، والذي غُيِّب في سجن، والذي طُرِد من بيته، والذي ظُلم من جبار، والذي عاش في زمان الاستضعاف، كلُّ هؤلاء قريبون من الله... فإذا وصلوا إلى مرادهم، ورُفع الظلم عن كواهلهم نسوا الله إلا من رحم، وقليل ما هم... وهذا سرُّ طول فترة الإعداد والبلاء وقِصر فترة التمكين والله أعلى وأعلم؛ ويلْطفُ اللهُ بالضعيفِ حتى يتعجبَ القوي، ويرزق مَن لا حيلة له حتى يتعجبَ صاحبُ الحيلة، فلا تستصغروا قطرات الماء اللينة، فقريباً ستثقب الصخر، وما النمرود ولا فرعون عنا ببعيد؛ فصبرٌ جميلٌ.

وانظري / وانظر... لماذا لم يعش عمر بن عبد العزيز إلا سنتين ونصف فقط في تمكينه، ولماذا قُتل عماد الدين زنكي بعد أقل من عامين من فتح الرُّها، وكذلك لماذا قُتل قطز بعد أقل من سنة من نصره الخالد على التتار في عين جالوت، وكذلك لماذا قُتل ألب أرسلان بعد أقل من عامين من انتصار ملاذكرد التاريخي، ولماذا لم يستمتع صلاح الدين بثمرة انتصاره في حطين إلا أقل من سنة ثم سقطت عكا مرة أخرى في يد الصليبيين، ولماذا لم يرَ عبد الله بن ياسين مؤسس دولة المرابطين التمكين أصلاً، ولماذا مات خير رجال دولة الموحدين أبو يعقوب يوسف المنصور بعد أقل من أربع سنوات من نصره الباهر في موقعة الأرك؟!

فكأن الطبيعي أن يأتينا الرجلُ الصالحُ ويحدث ما حدث، ليميز الله الخبيث من الطيب، ونتجه إلى الله فهو يبتلينا ليهذب، ولا يبتلينا ليعذب؛ فإلى كل من يعتقدون أنهم من "البائسين" الذين حُرموا مالاً أو حُكماً أو أمناً أو صحة أو حبيباً... أقول لهم: أبشروا، فقد هيأ الله لكم "فرصة عبادة"! فاغتنموها قبل أن يُرفع البلاء، وتأتي العافية، فتنسى الله، وليس لك أن تنساه، ولا كرب وأنت في معية الربِّ.

ومن هوان الدنيا على الله يا مريمُ أن ترك كلابَ المترفين فيها تشبع مع المترفين، وترك حملة الوحي فيها يهونون ... مع الوحي، سمع رسول الله – ﷺ – رجلاً يقول : اللهم آتني أفضل ما أتيته عبادك الصالحين!! فقال : "إذن

[1] ـ أبو جعفر القرشي

يُعقر جوادك ويُراق دمك"! حتى الجواد يُقتل مع صاحبه، هكذا قانون السماء لا يحابي ولا يجامل أحداً، فمن اصطفاه الله في الدنيا لا يرجع إلى الآخرة دون آداء رسالته، ولا يعود سالماً من طعنات الدنيا الغادرة، فقد مزق المجوسيُّ أحشاء عمر ﷺ، وطعن ابن ملجم عليّاً ﷺ، ولم ينجُ سبط رسول الله ﷺ من القتل، فأوغاد الأمة تآمروا ويتآمرون على كلِّ شريفٍ فيها، ولا تزال سلسة الشهداء تطول وتطول حلقاتها ما ظلَّ صراعٌ بين حقٍّ وباطلٍ؛ اللهم اجعلنا من أهل الحقِّ.

وأخيراً... بعضُ الصمتِ كلامٌ، جُلُّ التسامح فِطنةٌ، قالَ مكحولٌ: التقى يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم عليهما السلام فضحكَ عيسى في وجهِ يحيى وصافحه، فقالَ يحيى عليه السلام: با ابن خالتي: أراكَ ضاحكاً كأنكَ قد أَمِنْتَ! فقالَ عيسى عليه السلام: يا ابن خالتي ما لي أراك عابساً كأنكَ قد يئستَ! فأوحى اللهُ إليهما إنَّ أحبَّكما إليَّ أبشُّكما لصاحبِه. رحمَ اللهُ كلَّ لينٍ هينٍ بشوشٍ باسمٍ لأخيه.

وإليكَ يا ولدي

رسالتي إليك يا بُني ربما تكونُ الأولى وفي ذاتِ الوقت الأخيرة، فلا أدري ... قد تسعفني الكلمات ولا يمهلني القدر، هل ستقرأ كلماتي فتسمعها؟ أم تصم آذانك وتولي عنها مدبراً؟ اعلم يا صغيري أني أكتبُ لك الآن لتفهمَ بعد سنين، ولعلكَ حين تكبر لا تجدني بجوارك، فإن استوحشتَ طول الدربِ وقلة السالكين فاذكرني؛ واعلم أن روحي معك تعينك وترقبك، فتسعد بطيبِ فِعالكَ، وتحزن لسوءِ مآلك، وثق يا بني أنكَ مشيئة الله في هذا الكون، فما كان في ذهننا أنكَ ستقبل على الدنيا، وكنا نتفادى مجيئك أنا وأمك قدر المستطاع، فقد عزمنا النية أن نكتفي بأختك لخمس سنين، ربما لرعايتها على الوجه الأفضل، وأن تأخذ حقها من الاهتمام كما حلمنا، لكن... شاءت إرادة الله أن تأتي، فاستسلمنا لما ليس منه بد، وقلنا لعل الخير يكمن في غير إرادتنا، وليكن في فكرك أني كنت عن الزواج عازفاً، وما تزوجت إلا خشية أن يحاسبني الله على قدرتي أن أعفَّ مسلمة وتخاذلت، وكنتُ أفرُّ من أن أكون سبباً في قدوم أناس للحياة يعانون في بلدٍ همها وأد الحريات، وتكميم الأفواه، وسرقة الفقير والعطف على اللصوص والقتلة... وأنا الذي في قناعتي أن مَن يفرُّ من الزواج وهو قادر عليه كمَن يفرُّ من الجهاد سواءً بسواءٍ، وأن الأرامل والعوانس هما حقيقة ذنوبُ بعضنا إن لم يكونا كبائرنا، وقلت في نفسي: لعل الله يرزقني بولدٍ يكون سبباً في دخول الجنة، فحين أكتبُ إليك فاسمع وكأني أحادثك، ولا تصم أذنيك حين أناديك وأنا في عالم الغيب، ففي مواطن الضعف كن قوياً بالله ثم بي، وبدلاً من أن تكون بعض ذنوبي فزد في قليل حسناتي.

واعلم يا ماجد أن الذي هو أبوك الآن هو بقايا جسد هدَّهُ طول المسير، وأضناه الخوف من العاقبة، وأنهكه الخوف من سوء المصير، وأن الأحداثَ الأخيرة قد طحنت أباكَ كما تطحن الرَّحى الحَبَّ بين فكيها، غداً أو بعد غدٍ... ستميل شمسُ أبيك إلى مغربها، وستأتي عليك ليلةٌ لا قمر فيها، وستشعر بصقيع الدنيا في عروقك والجميع حولك، ليلة سينهار فيها ما تبقى من أبيك، فحافظ على الرجل الصغير داخلك، وحين أبيتُ ليلتي الأخيرة مُسجى إن قُدِرَ لي حيث كان جَدُّك، فكن بجواري داعياً لا باكياً، واعلم يا بني أنك لن تستطيع أن تشاركهم حملَ جثماني، وإن تظاهرت بذلك، فلن تقوى، لكن ساعتها ستتحول كلُّ حواسك إلى آذان وعيون، فتراهم وهم يهدهدون المسير، ودموع العالم في أعماق أحداقكَ، وأحزان

الدنيا بقلبك تتقلبُ كجمر الرمضاء، وقريباً يا وحيدي لن تراني، فقد نسجتْ أيدي الردى أكفاني، وحتماً وعاجلاً وليس آجلاً ستختلط أحزانُ الفِراق كلهبِ الشموع، وستُمسحُ الوجناتُ بمناديل الدموع، وينبتُ اليُتم لديك بأديم الضلوع، فجميعنا أماناتٌ .. وحتماً لله الرجوع، وحين يأخذني الرفاق في الظهيرة إلى دار البقاء، فحينها يا بني استقوِ بالله واسترجع، واصبر ففي الصبر راحة الحائر، وفي الرضا هدوءُ بالِ المضطرب، واستحضر لطف الله لك في الأخذ كما العطاء، فعطاء الله عطاء وأخذه عطاء، وإن ربي لطيف لما يشاء.

أعلمُ يا بني أنك ستقارن نفسك بغيرك، وربما تحملُ على أبيك أن تركَكَ دون أصحابك، وكان في وسعه أن يتركَكَ على خيرٍ من ذلك؛ نعم... كان بودي أن أضع بين يديك كنوز العالم، وسواري كسرى وقيصر، ومالاً يغنيك عن ذُلِّ السؤال، لكن يا ولدي هذا رزقي الذي ساقه الله لي، وأعانني عليه، وما تأففتُ ولا تبرمت، ولا سألتُ غير خالقي، ويقيني ... أن لا حيلة في الرزق، ولا شفاعة في الموت، وكنتُ أمهد لك دائماً بأن ميراثك مني هو العلمُ والأخلاقُ والكتبُ، وكلمةً كتبتها ربما تعينك على صخب الحياة، وأنا يا بُني لا أستعطفك، ولا أرجو منك لِين قلبك، ولا أن ترق لحالي، نعم رفضت السفر وجمع المال لأظلَّ بجوارك، وتركتُ من الفرص الكثير خشيةً عليك وعلى أسرتنا الصغيرة، وإيماني أن السعادة ليست في المال وجمعه، ولكنها في قلب المؤمن القانع برزقه، فالأرزاق يا بني تكفي كلَّ الناس، لكن الطمع لا يكفي إلا القليل، وعشتُ أردد وأضع نصب عيني " وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً"، ففي هذه الآية، ومعها، أدركتُ... وتمنيتُ أن أحقق التقوى لنفسي ثم لكَ، وأن أعيش حياتي على الوجه الذي يرضيني، فحين تشكو الفقر يا بني لا تلجأ إلا لخالقك، وإن لم تملك إلا القليل فتصدق به لأقرب محتاج، وسيؤتيك الله من حيثُ لا تحتسب، نعم كان رزقي قليلاً، لكن حرصتُ أن يكون من حلالٍ، وكم كنتُ أغبط نفسي حين يغشاني الرضا بينكم، وأشفق على من ترك أطفاله لأجل المال قائلاً: مسكين هو؛ هو الفقير وإن مَلَكَ، وأنا الغني مع الْمَلِكِ.

حين تشكو الفقر يا بني تذكر كمْ رتلتُ على رأسك آياتِ الرقيا لأرقيك، وكم قرأت المعوذتين لأُعيذك، وكم سهرت بجوارك وأنت تلعب، وكم شاركتك اللعبَ والناس نيام، وكم جهزتُ لك طعاماً تشتهيه قبل الفجر، وكم جلست بجوارك أعلمك القرآن لتحفظه، وكان

يقيني أني أعلمك القرآنَ ليحفظكَ، فاحرص على أن يراك الله حيث أمرك، وإياك أن يراك حيثُ نهاك، وان اختلط عليك أمرٌ فقل: لو رآني أبي وأنا على هذا النحو أكان يرضيه؟ فإن أجبت بنعم فأكمل، وإن أكملتَ بلا أو ترددت فانسحبْ على عجلٍ، وها أنا أستجمع مخاض الكلماتِ من رحِم الشيخوخة التي تدبُّ في أوصالي لأقص عليك بعض الذي تجهله. وأقسم لك يا بني ما ذاق قلبي في الهوى طعماً مثل حسن الثناء على خُلقك وحيائك، ولا انتشت روحي طرباً إلا لمزاحك، وما لهوتُ وما ضحكتُ والتعبُ يغشاني إلا معك، ربما تتذكر بعض أحداث الطفولة، وقد تختلط عليك بعض المشاهد، وحتماً ستسترجع بعضَ ما كان بيني وبينكَ، وفي خلوتك ذات مساء ستذبل الورود بغرفتك، وتغادر البسمة جدران بيتنا، وتسهر دون أبيك، فتعلو الكآبة مُحياكَ وجدرانَ الغرفة، فساعتها ...ستقلِّبُ الكتبَ وتبحث عن أوراق كتبتها هنا وهناك، وستقضي الليل الطويل تبحث في الإنترنت عن سطر من كلماتي، وستنظر إلى صورتي تحادثها وصقيع اليُتم يضرب في أحشائك، ساعتها ...سترتجف يداك وتتنهد تنهيدة الحزن الطويلة، وحين تنهمر دموعك يا بني تذكر كم أحببتك!! وتمنيتك مثالاً للرجولة والنخوة والإباء والكرامة والإيثار والمروءة، واجعل يا بني من موتي حقيقة الدنيا العارية، وتذكر أنكَ ستشرب من ذاتِ الكأس، فلا تفرح بالدنيا إن بسطت لك، ولا تحزن كثيراً إن أدبرت عنك.

نعم يا ماجد.. سميتك ماجداً إرضاءً لجدتك علّ الله يجعل فيك بعض السلوى عن فقدنا لعمِّكَ الكبير الذي رحل قبل مجيئك بكثير، وسأرحل مثله وأختفي، سيختفي من عالمك الرجل الذي كنتَ تحبه وتهابه في ذات الوقت، الرجل الذي طالما عاش يوزع البسمة على الجميع دون أن يعرفها، الرجل الذي تعبت قدماه من السير حافياً في الصغر في كلِّ دروبِ القرية وحقولها، الرجل الذي حلم أن يمارس هوايته في لعب الكرة صغيراً ولديه حذاءٌ يحمي شكاية الأقدام وتقرحاتها، الرجل الذي أرهقته وأتعبته السنوات العجاف في الغربة، وفي أحضان الوطن، الرجل الذي ما هان عليك سخطه، الذي تألم لألمك، وبكى لبكائك، وخاف عليك أكثر من خوفك على نفسك، الرجل الذي أحبك قبل أن تأتي، وانتظرك بأفراح وأهازيج العالم كله... ذاك الرجل الذي سيحطم الموتُ قلبه بكل سهولة ودون عناء، ولا يترك له فرحة أن يراك غضّاً فتيّاً.

وثق يا بني أن السعيد في دنيانا الفانية هو من يتقاسم الخير والحبَّ مع الناس، السعيدُ من يتقاسمُ الخيرَ والفضيلة فتتضاعف سعادته، والشقي من يتمحور حول ذاته وأنانيته.. الشقيُّ يحتكر الخير ويبخل به، فيختنق به ثم يموت في صدره ، فمن عاش لنفسه يا بني إنه لعَمري حياته قصيرة، وتنتهي بموته، لكن من عاش لغيره يظلُّ حيّاً وإن مات، فاجعل قلبك مليئاً بالحبِّ والعفو والتسامح، فمعاني الخير جميعها كلما أخذنا منها تزيد، أما الأشقياء فهم الذين امتلأت قلوبهم حقداً ونقمة وكراهية، وتذكر قول الصحابي الذي بُشِرَ بالجنة ومقولته الرائعة"غير أني أبيتُ وليس في قلبي حقدٌ لأحد".

وإن سألك أحدٌ عني قلْ لهم: كان أبي مسكيناً ويحب المساكين، وأني مارستُ أصعب المهن، وهي مهنة العزلة وحمل هموم المحتاج مع قلة ذات اليد، وطالما نظر إليَّ الكثير نظرة أني ذو مالٍ من فرط عفتي واستغنائي وحيائي، وكنتُ ألزم البيت كثيراً خشية أن يسألني محتاج وأنا لا أملك، ومن فرط حرصي يا بني عشقتُ الليل، ففيه آنس بخالقي وعالمي الذي أفتقده في الواقع، وعشقت الفجر منذ صغري، وعشقته بعد مجيئك لأنه الوقت الذي أقبلت فيه إلى الدنيا، عشقتُ الصمتَ والسهر والشكوى لله والتأمل في ملكوته.

ازهد في الدنيا يا ماجد تأتيك مُرغمة، واقنع يا بني برزقك، ففي القناعة كل الرضا، وكل يوم يمر عليك وأنت بعافية في دينك يستوجبُ منك كثير شكر، نافس العلماء وأهل الدين والورع ومن يذكرك بالآخرة، واحجز لنفسك مكاناً بينهم، فإن لم تستطع فقريباً منهم، اجعل حبك للصالحين عبادة وتقرباً، وصادق من يذكرك بتقصيرك في جنب الله والآخرة، وابعد عن صديق السوء ما استطعت إلا في نصحٍ أو قولِ حقٍّ، واعلم يا بني أخيراً أني حاولت أن أكون صالحاً فربما ينالك فضل..."وكان أبوهما صالحا"، وآخر كلماتي إليك يا بُني: إن لم تستطع أن تداوي الآخرين فلا ترقص طرباً على جراحهم، وإن لم تزد على الدنيا بحسن خلقك، فلا تكن زائداً عليها بسوء فعلك، وأن أمنية أبيك أن تموتَ شهيداً، فتمناها على الله بصدقٍ، فربما تنالها، فقد تمنيتها في رابعة النهار، لكن أبتْ عناية السماء أن أحظى بها، وقالت لي: أنت أهون من أن أتخذك شهيداً.... حفظك الله يا بني وكل أولاد المسلمين، وإلى لقاءٍ تحت عدالةٍ قدسيةِ الأحكام والميزان.

المـــوت

وكما يولج ربُّ العالمين الليل في النهار ويكورهما، ونألفُ هذا ونشتاق لذاكَ حسب ميل نفوسنا وهدي أرواحنا، ينقلنا الله من النور إلى الظلام نقلاً هيناً ليناً لا نشعر به، ورغم أن الليلَ أسودُ والنهار مشرقٌ، لكن ... تتداخل مراحلُ وسنوات حياتنا وتمر دون شعور، فحياتنا أشبه بالساعة وعقاربها، يظلُّ عقربُ الثواني يدبُّ كأنفاسنا ولا نعبأ بحركته، وبعد فترة يتحرك العقرب الصغير وينتقل دون شعور، فهكذا تتفلَّت حياتنا من أيدينا، وننتقل من الطفولة إلى الشباب ثم الشيخوخة إن طال بنا العمر، ولو كان في الإمكان عملُ ساعةٍ مكتوب عليها عمرنا الذي سنعيشه ثم تسير حركتها بالعكس فتنقص أعمارنا بحسب الثواني والدقائق والساعات لهالنا الأمر! وتكالبنا على الطاعة، لكننا نمضي في الحياة وكأن الموتَ سينسانا إلى آخر محطات الحياة، لكنه يظلُّ الواعظ الأكبر، وكفى به لمن وُعِظَ.

لكن ... وآه من لكن! كان أبو سليمان الداراني يقول:" من أحسن في نهاره كوفئ في ليله، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره"، وصدق من قال: ما رأيت حقّاً أشبه بباطل من الموت، عجباً! أتركُ الميتَ في قبره قد انقطع من كلِّ سعيه في الدنيا ليلاقي سيئاته، ويُحاسب عما اقترف من آثام، ثم أعودُ أدراجي أقترف ذاتَ الآثام، وأتكالبُ على الدنيا، إنه أنا المجترئ على الله إلا من رحم.

قيل لـ عمرو بن العاص وهو على فراش الموت: يا أبا عبد الله، إنكَ كنتَ تقول: أشتهي أن أرى عاقلاً يموت حتى أسأله كيف يجد؟ فكيف تجدك؟ قال: أجد السماء كأنها مطبقة على الأرض وأنا بينهما، وأراني كأنما أتنفس من خرت (ثقب) إبرةٍ، ثم قال: اللهم خذ مني حتى ترضى؛ ثم رفع يديه فقال: اللهم أمرتَ فعصينا، ونهيتَ فركبنا فلا بريء فأعتذر، ولا قوي فأنتصر، ولكن لا إله إلا الله ثلاثاً، ثم مات.

واليقين الذي لا مراء فيه وكلنا عايناه وعشناه ورأيناه بأم أعيننا...لم تمتلئ دار فرحاً إلا امتلأت ترحاً، والأشياء التي تُفرحنا هي ذاتها تبكينا، ونقولُ في الدنيا بقول الزاهدين ونعمل فيها عمل الراغبين، وزجاجة النفسِ في أي وقتٍ ستُكسرُ، وحتماً ستغلِبُ الآفاتُ قنديلَ الحياةِ، فليختر كلٌّ منا لنفسه قنديلاً في الآخرةِ لا يبلى.

يُروى أن ملكاً[1] مرَّ في سفره بمدينةٍ قد ملكها سبعةٌ من الملوكِ وبادوا جميعاً فقال: هل بقي من نسلِ هؤلاء الملوك أحدٌ؟ فقالوا: نعم، بقي رجلٌ وهو في المقابر لا يركنُ إلى أحدٍ، ولا يأنسُ بأحدٍ، قال لهم: دلوني عليه، فلما آتاه رأى رجلاً قد أهلكه الخوفُ ونحلته العبادةُ، فسلم عليه، فردَّ السلامَ، فقال الملكُ: ما حملك على لزوم المقابر؟ فأطرق إلى الأرضِ ملياً ثم رفع رأسه وقال:أردتُ أن أعزلَ عظامَ الملوكِ من عظام عبيدهم فلم أقدر، فقال الملكُ: هل تتبعني فأحيي بك شرفَ أبائكَ إن كانت لك همة؟ قال الرجل: إن همتي لقليلة إن كان بغيتي عندك، فقال الملكُ: وما بغيتك؟ قال: أبغي حياة لا موت بعدها، وشباباً لا هرم بعده، وغِناً لا فقر معه، قال له الملكُ: لا أقدر على ذلك، فقال له الفقير: امضِ إلى شأنك ودعني أطلبه ممن عليه أقدر وله أملكُ، فإن الدنيا قد ذهبت، والآخرة قد اقتربت، والسفر بعيد وليس معي زاد، والرقاد طويل وأنا على غير ميعاد.

واعلمي / اعلم أن هذه الأربعة تفسر الدنيا كأحسن تفسير، النومُ والقضاءُ والموتُ والابتلاء، الأولُ يُخرجُ الحيَّ من الحياةِ خروجاً هيناً ليناً مصاحباً بالرضا في أغلبه، والثالثُ يخرجه قسراً وعنيفاً من حياةٍ إلى أخرى إلا من رحم، أما القضاءُ فوسط بين الاثنين حيث ينزلُ على أهل الرضا كالنوم هيناً، وعلى أهلِ الشقاءِ كالموتِ عنيفاً مصحوباً بكلِّ الآلام، أما الأخيرُ ... من رضي رابحٌ به مهما كانت عواقبه، ومن عارض فاته الثوابُ وخسر ما ابتلي به.

وقيل: "لو سقط من أَحدهم درهمٌ لظل يومه يقول: إنا للهِ! ذهب درهمي، ويذهبُ عمره ولا يقول: ذهب عمري"[2]، لله در الموت من حقيقة!!! تجعلنا نعيد الحسابَ ولو لبعض الوقت، ونتساءل ماذا قدمنا لغدٍ؟ أليس الذي جرى على أبي أو جدي أو جاري سيجري عليَّ غداً أو بعد غدٍ فنخشع ونتأمل؟ دخل الموتُ دارنا جميعاً فأخذ غيرنا وتركنا لنعتبر، فهل اعتبرنا؟ وكلنا يبكي على الموتى ويترك نفسه، ومن كان منا ذا عقلٍ وَفِطنَةٍ لكانَ عَلي نفسه لا عليهم بكاؤُهُ! يرحم الله الإمام[3]:

أَشدُد حيازَيمكَ لِلمَو ... تِ فَإِنَّ الموتَ لاقيكا

وَلا تَجزع مِنَ الموتِ ... إذا حَلَّ بِواديكا

---

[1] - (قيل أنه الإسكندر الأكبر)

[2] - قالها: أبو بكر بن عياش

[3] - علي بن أبي طالب رضي الله عنه

فَإنَّ الدِرعَ وَالبيَض ... ةَ يَومَ الرَوعِ يَكفيكا

كَما أَضحكَ الدَهرُ ... كَذاكَ الدَهرُ يُبكيكا

فَقَد أَعرِفُ أَقواماً ... وَإِن كانوا صَعاليكا

مَساريعٌ إِلى النَجدَ ... ةِ لِلغَيِّ مَتاريكا

وكلُّ دارٍ ستخرجُ منها كارهاً أولى بك أن تدعها طائعاً، واعتبر أخا الإسلامِ أن الموتَ سهمٌ وقد صُوِبَ إليكَ، وإن رأيتَ جنازةً فاحسبْ نفسَك صاحبها، وحين تعاينُ قبراً فتوهم نفسَك قاطنه، وعُدَّ باقي الحياة لك رِبحاً، وكأنه قد أجيبتْ لك "ربِّ ارجعون لعلي أعمل صالحاً"، فهيا أرنا ما تعمل؟ وضع نصب عينك:(قلْ إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم)، يقول أبو علي الرازي: "صحبتُ الفضيلَ بن عياض ثلاثين سنة، ما رأيته مبتسماً إلا يوم مات ابنه علي، فقلتُ له في ذلك، فقال: إن الله أحبَّ أمراً فأحببتُ ما أحبَّ الله"، وكان ابنُ الزبير إذا دخل بيته سكت أهل البيت، فإذا قام إلى الصلاة تحدثوا وضحكوا.

ومن أحب المخدوم أحب الخدمة له، ولما كانت حياةُ المؤمنِ تدورُ بين حربٍ ومحرابٍ، ستأتي لحظةٌ على الجميعِ يقول فيها لسانُ القبر: إن غيرَ المفهوم في دنياكم يُفهمُ ها هنا؛ وكلُّ مالٍ أوراقٌ بالية ها هنا، وكلُّ جمالٍ والترابِ سواء، وثمة يرى كلٌّ منا الْمُنْكَرَ من مُنْكَرٍ، وكلَّ ذاتِ نكِيرٍ من نكِيرٍ، رُؤيَ عمر بن الخطاب ﷺ بعد موته بـ اثنتي عشرة سنة فقال: الآن تخلصتُ من حسابي! واعجباً.. أُقيمَ للحسابِ أكثر من سني الولاية وهو من هو! فليت طواغيت العصر ينتبهون، وليتنا نتحرى عدله وزهده.

وليكن دعاؤنا جميعا " توفّني مسلماً "، وليس توفني منتصراً أو غنيّاً أو ذا شهادات ومناصب، فـأن يتوفاكَ اللّهُ مسلماً أعظمُ من كلِّ المالِ وكلِّ الجمالِ وكلِّ العزِّ وكلِّ الجاهِ، وأعظمُ من الحريةِ ذاتها، فاشغلْ نفسكَ بالأهمِ يَهُنْ عندكَ المهمُ، فلا تشغلوا أنفسَكم بالنصرِ متى وأين؟ لكن علينا الأخذَ بأسبابِهِ دونَ أن نغفلَ خالقَ الأسبابِ، والشيطان لا يتسلط على ذاكر الموت، والفراقُ قرينُ الوصلِ، والأيامُ رواحلُ، والحبيبُ مفارِقٌ أو مُفَارَقٌ، والمرء رهن مصائب، فاتقوا يوم التلاق.

يا مَنْ تلَهَّىْ، وشيبُ الرَّأسِ يَنْدُبُهُ

ماذا الذي بَعْدَ شيبِ الرّأسِ تَنْتَظِرُ؟

لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ غَيْرَ الْمَوتِ مَوْعِظَةٌ
لَكانَ فِيهِ عَنِ اللَّذاتِ مُزْدَجَرُ

ومرَّ (عيسى عليه السلام)[1] على قريةٍ فوجد كلَّ من فيها أمواتاً وهم مطروحون على وجوههم في الأزقة، فتعجبَ عيسى عليه السلام من ذلك وقال: يا معشر الحواريين...إن هؤلاء القوم قد ماتوا على سخطٍ وغضبٍ، ولو ماتوا على رضى من الله لدفنَ بعضُهم بعضاً، فقالوا: يا روح الله وددنا أن نعرفَ قصتهم وخبرهم، فسأل الله عز وجل في ذلك، فأوحى الله إليه: إذا كان الليلُ نادِ بهم فإنهم يجيبون، فلما كان الليلُ صعد عيسى عليه السلام على شَرَفٍ[2] ونادى يا أهل القرية، فأجابه مجيبٌ من بينهم لبيكَ يا روح الله، فقال: ما قصتكم؟ وما خبركم؟ فقال: يا روح الله ... بِتْنا في عافيةٍ وأصبحنا في الهاوية، قال: ولِم ذلك؟ قال: لحبِّنا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصي ولم نأمر بمعروفٍ ولم ننه عن المنكر، فقال له عيسى عليه السلام: كيف كان حبُّكم للدنيا؟ قال: كحبِّ الصبي لأمِّه... إذا أقبلت فرحنا وإذا أدبرت حزنَّا وبكينا، فقال له عيسى عليه السلام: يا هذا ... ما بالُ أصحابك لم يجيبوني؟ قال: إنهم ملْجمون بلجامٍ من النار بأيدي ملائكةٍ غلاظٍ شدادٍ، قال: وكيف أجبتني أنتَ من بينهم؟ قال: إني كنتُ فيهم ولم أكن منهم، وحين نزل بهم العذابُ لحقني معهم، فأنا الآن معلقٌ على شفير جهنمَ لا أدري أأنجو منها أم أُكَبُّ فيها؟ أعاذنا الله منها.

والشاهد من القصة لا يخفى على كلِّ ذي لُبٍّ، فهذا الرجلُ الذي قام وردَّ لم يكن من أهل المعاصي ولكنه عاش مع العاصين، فلما جاء العذابُ لم ينجُ، وحين نُسْقِطُ هذا على واقعنا للأسف لن ينجو منَّا إلا من نجاه الله، فلا يكفي لي ولكم أن نغترَّ بأننا ننكر الظلم بقلوبنا ونعايش أهل المعاصي فنشتري منهم ونبيع لهم، ونتزوج من بينهم وكأن الخطبَ هينٌ والأمر سهلٌ، نسأل الله أن يغفر لنا ولكم التقصير.

وليس بين الموتِ في زنازين المعتقلات أو على الأسرة فرقٌ، والموتُ في الغربةِ يشبهُ الموتَ في ديارِ الوطنِ، فالدربُ إلى الآخرةِ واحدٌ فأحسني القدوم عليه؛ يا مريمُ ...كم كلمة كَلِمَتْ قلبَ متكلمٍ؛ وحتماً ستخلو مقاعدُ الدنيا من المشاهدين لأحداثها الآن، وسيأتي غيرنا ليستقلوا قطار الحياة، فكلنا على بُعد خطوة واحدة من الرحيل، حين يأخذ الفزعُ بمجامع

---

[1] - ورد في (بحر الدموع) لـ ابن الجوزي، وأورده أبو نعيم في الحلية (61/4) وابن أبي الدنيا في (ذم الدنيا) وأورده الغزالي في الإحياء.

[2] - (مكان عالٍ)

القلوب، لحظة العضِّ على الأنامل، وتمني العودة التي لا تعود، سنعيش برودة الأطراف، وتمتمات الاحتضار، ثم لحظات النزع والهلع؛ وحين يتأملون ما تركنا لهم سيلعنون ضعفنا وتخاذلنا، فاكتبْ يا هذا أثراً طيباً قبل أن تُقطفُ وردتك من مغرسها، وبادر وقاوم الظلم قبل أن تتوقف سفينة حياتك في مرساها الأخير، فربما تبكيك المآقي؟ وقد يفقدك مسجدك ومصعد عملك الطيب.

ولاحَ مشهدُ دفنــي بخاطري!!سألتُ ... هل سينشغلُ أهلي بالدعاءِ لي ساعتها؟ أم بإتقانِ اللحد وغلق فرجاتِهِ ورشِّ حباتِ الماء حتى لا يدخلُ عليَّ بصيصُ نور في ظلمةِ القبر ولا تخرج رائحتي الكريهة؛ معَ يقينهم أن الظلامَ يكرهني، وكيفَ حالي ومُنكر ونكير يسألاني؟ يا له من مشهد قاتل!كيفَ لو خذلتني الذنوبُ في هذا الموقف الهائل؟ هل سينفعني الفيسُ ويترحم عليَّ أصدقائي حين يرون صفحتي غادرها الحياة؟كَم قرأتُ من المواعظ وتلوتُ من العِبر؟ يقيناً الندمُ لن ينفعني؛ فَالموتُ لا يُرثي لباكٍ، ولا يأبهُ لمِنكسر؛ إنه أنا ذاك المنكسر، ليتني أتوب وأنوب.

الختام

سعادةُ المالِ ... وسعادةُ البالِ، هذه جيبية، وتلك قلبية، هذا في قصر لا يتسع، وذاكَ في كهفٍ لا يضيقُ، هذا لا يغادرُ بيته دونَ الوقوفِ أمامَ مرآتِهِ يعرضُ عليها مظهرَهُ، وذاكَ لا مرآةَ في بيته ولا يحتاجُها مخبرُه، هذا تقلقه نعومةُ فرشه فلا ينامُ بأمانٍ، وذاكَ يتوسد رضا قلبه فلم ينم ليلةً جوعان، وفقيرو الجيوبِ أغنياءٌ حين تقنعُ قلوبهم، فيُرزقون سعادة الحال والبال، لا يجزن أحدهم مما فاته، ولا تطمع نفسه فيما لا يملك، لذا تجد ابن الفقير ينتعلُ أديمَ الأرض وتعلو البسمةُ محياه، وابن الغني يحتار أيَّ النعال يركب والآفاتُ تمتطيه إلا من رحم، إنها لا

تأتي مِن خارج النفس، ومردها في اثنين لا ثالث لهما... قلب قانع بالعطاء مهما بدا قليلاً، ونفس مطمئنة بالقضاء مها كان وبيلاً.

خذي ما تسمح لكِ الحياة به، وانظري إلى من أقل منكِ في أمور الدنيا، وساعتها ستشعرين أنكِ أغنى من الكثير، وانظري إلى من هم أفضل منك في أمور الآخرة، ساعتها ستلمسين فقرك وحاجتك لمضاعفة أعمال الخير والطاعة، واصبري على المنع، واشكري الله على العطاء، فعطاءُ الله عطاء ومنعه عطاء...خرجَ الحسنُ البصري يوماً على أصحابه وهم مجتمعون فقال:" واللهِ لو أن رجلاً منكم أدركَ مَن أدركتُ من القرون الأولى، ورأى من رأيتُ من السلفِ الصالحِ؛ لأصبحَ مهموماً، وأمسي مغموماً، وعلم أن المجِدَّ منكم كاللاعبِ، والمجتهدَ كالتاركِ، ولو كنتُ راضياً عن نفسي، لوعظتكم، ولكن اللهَ يعلمُ أني غيرُ راضٍ عنها، ولذلك أبغضتها وأبغضتكم"، سبحان الله...هذا على أيام الحسن، لا يرضى عن نفسه ولا عمن يعيش بينهم! فما بالنا بأيامنا والفتنة التي نعانيها! يا رب سلم سلم.

واعلمي أنَّ كلَّ شيءٍ ينقصُ بالإنفاق إلا فضائل الأعمال وخيرها، فلا تُبلى على كثرة الاستعمال، ولا خوف عليها من سلطان جائر، فالخيرُ لا يفسدهُ كثرة الآفاتِ، والنارُ لا تمتد إلى فضائل الأعمال، ولا لصوص الدنيا تستطيع نزع خصال الخير من النفس، فلا يزهدُ في مكارم الأخلاق إلا فاقد الرأي متهم الهوى منتكس الفطرة، وهذا توجيه رباني صارم لسيد البشر عليه الصلاة والسلام ولنا جميعا من بعده"استقمْ كما أُمرتَ" وليس كما رغبت، واجعلي لنفسكِ خبيئةً وسريرةً لا يعلمها إلا خالقكِ، فكما أن ذنوبَ الخلواتِ مهلكاتٌ، فحسنات الخلوات بفضل الله منجيات، وإن كان أدبُ القلبِ مراقبة الباطن، فمراقبة الظاهر أدبُ الجوارح وضبطها.

وشاءتْ حكمة اللهِ أن يتعرضَ كلُّ أنبيائه عليهم السلام لأقسى أنواع الابتلاء، وأعنف التهم من الأعداء، وذلك كي يتأسى التابعون بأنبيائهم بالطرق المشروعة في كيفية التعامل مع كلِّ نازلةٍ تلم بهم، فمهما عصى أعداؤنا الله فينا فليس أمامنا إلا أن نطيع الله فيهم، فأروا الله من أنفسكم خيراً، ومن لا يتعب لا يُحسُّ بطعم الراحة، قيل لبعض الصالحين: ارفق بنفسك، قال: "راحتها أرجو"، ومن لا يجوعُ لا يشعر بطعمِ الأكل، ومن لا يُعتقل لا يقدر قيمة

الحرية، ومن لم يدق قلبه فقد حُرم أرق المشاعر، ومن لم تصبه رصاصة الشهادة فما صدقت نيته، ومن لم يرَ الحقَّ إلى الآن فلن يراه فيما بعد.

"يأيها الإنسانُ إنك كادحٌ إلى ربّك كدحاً فملاقيه"...هي حقيقة معركة المرءِ في دنياه التي لا تنتهي إلا بأفول نجمه، والصراعُ مع الذاتِ لا يشبه معركة انتصر فيها نابليون أو هُزِمَ فيها هتلر، فالانتصارُ الحقيقي هو انتصارُ المرءِ على شهواتِ الدنيا وملذاتِ الحياة، وأن يستطيعَ بقيادة قلبه وعقله أن ينظمَ ملكاتِ النفسِ وجوارح الروح وفق فطرته السليمة وجبلته المتوازنة، وأن يكونَ لديه القدرة أن يقبضَ على أي عضو من أعضائه ينوي الخيانة أو يلمح بالعصيان فيعدمه أو يسجنه داخل سردابِ الذات، وأجمل الثورات هي ثورة النفس على غيّها وغيابها عن إشراقات الحقِّ، وتغيب كلُّ الطواغيت وهم حضور، وتموتُ الظلمة وهم بعد أحياء، وشروق الصحوة داخل بعض النفوس البسيطة تبدو وكأنها تعانق قبساً من قبساتِ النبوة.

وأقولُ لكلِّ مُبْتَلى: تعايش مع هاتين الكلمتين وقلبهما على أيّ نحوٍ شئتَ ستجد خيراً، " يدبر الأمر"، أي: يُحْكِمُ الأمر وينزل القضاء والقدر (بقدرٍ) من السماء إلى الأرضِ، الربُّ والإله والخالق وأرحم الراحمين يريد بك الخير، وقد يكمنُ الخيرُ في الشرِّ، فلا كربَ وأنتَ في معية الربِّ، وويلٌ لمن غلبت آحاده عشراته، بمعنى ويلٌ لمن غلبت سيئاته حسناته فالسيئة بواحدة والحسنة بعشر أمثالها.

لذا أقولُ لكلِّ ذي دينٍ ومروءة: فليكن خوفُكَ على بناتِ الناسِ كخوفكَ على أختكَ، وليكن تعاملُكَ مع أختك كتعاملك الرقيق مع بناتِ الناسِ، هكذا تليق بك المروءة أكثر! واعلم أنه مِن الناس مَن لا مروءة له، ولا خلق يتحلى به، وأشباه هؤلاء كُثرٌ، فهم يفرحون بالقليل ويتغنون بالطواغيت، ويرضون بالدون، قِبلتهم الغريزة والبطن، تماماً كالكلبِ الذي يصيبُ عظمةً يابسةً فيفرحُ لها ويهشُّ ذيْله بها طرباً، ولا يجني منها إلا الألم وبعض الدماءِ من فمه تسيلُ، أما أهلُ الفضلِ والمروءةِ فلا يرضون بالقليل، ولا تقنعهم بعضُ الرشاوي العاجلة من الدنيا وأهلها، بل تسمو نفوسهم إلى ما هو أهلٌ لهم، وهو لهم أهلٌ.

وقِيلَ: ماتَ عمرُ بن عبد العزيز رحمه الله وخلفَ أحدَ عشرَ ابناً، وبلغت تركته سبعة عشر ديناراً كُفِنَ منها بخمسة دنانير، وثمنُ موضع قبره ديناران، وقُسِمَ الباقي على بنيه، وأصابَ كلُّ واحدٍ من ولده تسعة عشر درهماً، ومات هشامُ بن عبد الملك وخلفَ أحد عشر ابناً

فقُسِمت تركته وأصاب كلُّ واحدٍ من تركته ألف ألف، ورأيتُ[1] رجلاً من ولد عمر بن عبد العزيز قد حمل في يومٍ واحدٍ على مائة فرس في سبيل الله عز وجلّ، ورأيتُ رجلاً من ولدِ هشام يُتَصَدَّقُ عليه، هنا نتوقف ملياً... تتجسد واقع هذه الآية:" وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا"، فالذين يتقون الله يضمنون أن الله سيرزقهم بمن يتقي الله في ذريتهم الضعيفة، هذه بتلك، وبرغم ما نقرأ ونسمع عن التقوى والخشية، لكن واقعنا يكذب ذلك وفعلنا، وانتشرت كالنار في الهشيم مقولاتٌ يرددها الأغلبية مثل: نريد تأمين مستقبل الأولاد، ولأجل ذلك تضيع حياة الكثير تحت وعثاء السفر وكآبة المنظر، ومازال السفر مستمراً.

واعلمي يا بنيتي أن الله قد يبتليكِ بمن حولك، و بأقرب الأقربين وهم أهلك حتى لا يتعلق قلبك بغيره، "قدمَ وفدُ الأشعريين على رسول الله ﷺ فقال: أمنكم كانت وَحَرَةُ؟ قالوا: نعم، قال: فإن الله أدخلها الجنة بِبِرِّ والدتها (وهي مشركة) يعني الأمَّ... أُغِيرَ على حَيِّها فاحتملت والدتها تشْتَدُّ بها في الرمضاء، فإذا احترقت قدماها جلست وأجلست أمَّها في حِجرها وأظلَّتها من الشمس، فإذا أراحت حملتها حتى نجَّتْها"[2]، قَالَ ابْنُ جَابِرٍ : وَلَقَدْ أَدْرَكْتُ، وَإِنَّهُ لَيُقَالُ:" لَوْ كُنْتَ أَبَرَّ مِنْ وَحَرَةَ" ماذا عساها تقول هذه الابنة لو رأت بيوت المسنين ودور الرعاية والأمهات يتلهفن على رؤية أبنائهن؟ يا حسرة على العباد!

نعم قد يبتليكِ ليستخرج من قلبك عبودية الصبر والرضى وتمام الثقة به، وكسب الدنيا لذيذ، غير أن الحساب عليها شديد، ساعة الحمل لعب ـ والجد في الولادة، وهذا ابن عطاء يقول في حِكمه:" ما نفع مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة"، وللقلوب بصماتٌ كبصماتِ الأصابع، لا تنفكُّ عنها و لا يمكن تغييرها أو حتي فهم شفرتها، ولا يَفِكُّ طلاسمها إلا رب هذه القلوب، فاجعلي لنفسك بصمةً، واتخذي بنيتي التقوى وحب الله ما يميز قلبك وبصمتك مع الخالق، ولا شيء في الدنيا يرفع قدر المرأة مثل العفة، فهذه مريم مَنَحها اللهُ من عطاياه، وهي في مكان قصيٍّ بعيداً عن أعين الناس، فمهما كنتِ بعيدةً عن عناية الناس ودعمهم لك، فلن تكوني بعيدة عن عطاء ربك و رحماته.

---

[1] - (الكلام لـ عبدالرحمن بن القاسم بن محمّد بن أبي بكر) **انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي**

[2] - (في الحديث الذي أخرجه البيهقي في الشعب)

ولما حضرتْ معاذَ بن جبل ﷺ الوفاةُ قال: مرحباً بالموتِ، مرحباً بزائر جاء على فاقةٍ، لا أفلح من ندم، اللهم إنك تعلمُ أني لم أكن أحبُّ البقاء في الدنيا لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لمكابدة الليل الطويل، ولظمأ الهواجر في الحر الشديد، ولمزاحمة العلماء بالرُّكَبِ في حِلَقِ الذكر؛ والآن أسأل: لماذا وعلام نحبُّ نحن الدنيا؟ يرحم الله معاذاً فقد رفع لنا السقف كثيراً.

وحُكِيَ عن بعض الصالحين أن ابناً له مات فلم يُرَ به جزعٌ، فقيل له في ذلك، فقال : هذا أمرٌ كنَّا نتوقعه، فلما وقع لم ننكره، ورحم الله الحسن البصري حين سأل من في حضرته قائلا: يا معشر الشيوخ... ما يُنْتَظَر بالزرعِ إذا بلغ؟ قالوا: الحصاد، ثم أيقظ الشباب قائلا: يا معشر الشباب إن الزرعَ قد تبلغه الآفة قبل أن يبلغ، فتوقعي موتي في أي لحظة يا مريم، ومتى حان فلا تنكريه، وسلي ربكِ أن يرحمني كما كنتُ بكِ رحيماً.

تالله لو عاش الفتى في دهره

ألفاً من الأعوام مَالكُ أمرِه

متلذذاً فيها بكلِّ نفيسَةٍ

متنعماً فيها بنُعميَ عصره

لا يعتريه السُقمُ فيها مرةً

كلا ولا تردُ الهموم بباله

ما كان هذا كُلهُ في أن يفي

بمبيتِ أول ليلة في قبره[1]

واعلمي يا بنية ... إنَّ كلَّ مظلومٍ ويتيمٍ وعانسٍ وأرملةٍ شرفٌ مبتذلٌ ضائعٌ فى جسد هذه الأمة، وسيحاسبُ ربى من يستطيعُ أن يمسحَ دمعةَ أرملةٍ وتوانى، أو يسعدَ يتيماً فتخاذل، أو يرفعَ ظلماً فجبن، أو يصدع بالحقّ فخنس، نحن بعضُ سيئاتِ الآخرين، وربما كبائرهم؛ وتعلمتُ يا بنية أن الحيـاةَ في سبيـلِهِ أجملُ وأشقُّ وأصعبُ من الموتِ في سبيـلِهِ، وأنْ تهدي حبيـباً يحيا وردةً أو بسمةً خير من وضعِ شـلالات وردٍ على قبره، وأن اللهَ مع القلـوبِ المنكسرةِ، فجميعُنا بقيـــةُ موتٍ يحْيـــا؛ وقال مالك بن دينار: إن القلب

[1] – (الحافظ بن عبد البر القرطبي)

إذا لم يكن به حزن خَرِبَ، كما أن البيتَ إذا لم يُسكَّن خرب، ويرحم الله سفيان الثوري حين قال: إني لأعرف ذنبي في خُلق زوجتي، ودابتي، وفأرة بيتي، ويقول سفيان: حُرمتُ قيام الليل أربعة أشهر بذنبٍ، وُيعيِّرُ ابنُ سيرين رجلاً بفقره فيُحبس في دَيْنٍ، وهذا الذي عاش مسلماً ست سنين فحسب، واهتز لموته عرش الرحمن، وشيعته الملائكة إلى قبره، ومناديله في الجنة ألين من الحرير، يرحم الله سعد بن معاذ.

هذه نصيحتي يا مريم إليكِ وإلى كل مريمات عصرك... وهذا هو الحقُّ الذي أعرفه، واعلمي أن مفتاح صلاحك وسعادتك في الدارين بيدك لا بأيدينا، فإن شئتِ أصلحت حالك وصلح مآلك، وربما صلح بك حالُ الأمة، وتذكري قول رسولنا الكريم وهو يخاطب ابنته:" اعملي يا فاطمة فلن أغني عنك من الله شيئا"، وهو من هو عند الله؟ وهي من هي في التربية والنشأة وجميل السلوك! فاعملي يا بنية فلن أغني عنكِ من الله شيئاً.

(إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)؛ وآخر كلامنا أن الحمد لله رب العالمين.

همسة... وكلُّ من نسي الإساءةَ أضاف سطراً في مكارمِ الأخلاقِ، وكلُّ مَن ردَّ على السيئةِ بالحسنى فقد أحسنَ إلى الفضيلةِ قبل إحسانِهِ إلى ذاتِهِ، وحفنةُ الدموعِ التي تنسكبُ على وجنةِ المحبِّ هي سطرٌ من سطور النور، أقل ما فيها أنها تسجلُ له في صحيفة الوجد أنه عاشق؛ فلتكنْ هُو/ هي.

دعاء الختام: (اللهمَّ افتح مسامعَ الأفهامِ لقبولِ ما ينفع، ولا تسلط جاهلَ الطبعِ على عَالِمِ القلب وأخرجنا إلى نور اليقين من هذا الظلام ... اللهم آمين).

" وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا".

*****

قصص ذات صلة

... (قصة يوم الوشاح) ... (حَدَّثَنِي فَرْوَةُ بْنُ أَبِي الْمَغْرَاءِ أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَسْلَمَتْ امْرَأَةٌ سَوْدَاءُ لِبَعْضِ الْعَرَبِ وَكَانَ لَهَا حِفْشٌ فِي الْمَسْجِدِ قَالَتْ فَكَانَتْ تَأْتِينَا فَتَحَدَّثُ عِنْدَنَا فَإِذَا فَرَغَتْ مِنْ حَدِيثِهَا قَالَتْ وَيَوْمُ الْوِشَاحِ مِنْ تَعَاجِيبِ رَبِّنَا أَلَا إِنَّهُ مِنْ بَلْدَةِ الْكُفْرِ أَنْجَانِي، فَلَمَّا أَكْثَرَتْ قَالَتْ لَهَا عَائِشَةُ وَمَا يَوْمُ الْوِشَاحِ قَالَتْ خَرَجَتْ جُوَيْرِيَةٌ لِبَعْضِ أَهْلِي وَعَلَيْهَا وِشَاحٌ مِنْ أَدَمٍ فَسَقَطَ مِنْهَا فَانْحَطَّتْ عَلَيْهِ الْحُدَيَّا وَهِيَ تَحْسِبُهُ لَحْمًا فَأَخَذَتْهُ فَاتَّهَمُونِي بِهِ فَعَذَّبُونِي حَتَّى بَلَغَ مِنْ أَمْرِي أَنَّهُمْ طَلَبُوا فِي

قُبُلِي فَبَيْنَاهُمْ حَوْلِي وَأَنَا فِي كَرْبِي إِذْ أَقْبَلَتْ الْحُدَيَّا حَتَّى وَازَتْ بِرُءُوسِنَا ثُمَّ أَلْقَتْهُ فَأَخَذُوهُ فَقُلْتُ لَهُمْ هَذَا الَّذِي اتَّهَمْتُمُونِي بِهِ وَأَنَا مِنْهُ بَرِيئَةٌ. في أحد أحياء مكة كان يعيش بعض العرب، وكان لديهم جارية سوداء تقوم على خدمتهم وكانوا قد أعتقوها، فبقيت عندهم، وفي يوم من الأيام خرجت صبية لهم إلى مغتسل لها وعليها وشاح أحمر، ووضعته خارج المغتسل ثم مرت حدأة فحسبته لحماً فالتقطته، فلما خرجت الصبية فقدته ولم تجد وشاحها ، فصاحت بأهلها فبحثوا عنه ولم يجدوه، واتهموا تلك الجارية بسرقته، و قاموا بتفتيشها وتهديدها وتعذيبها والبحث عن الوشاح بين خبايا ملابسها،وكانت ساعة كرب وشدة أحست فيها بالمهانة والظلم، وضاقت بها الحيل، فليست ذات نسب تلجأ إليه، ولا ذات قرابة تستنصر بها، وليس بها قوة فتدفع عن نفسها، فلم تجد نصيراً تستنصره، ومغيثاً تستغيث به إلا ربها الذي خلقها، ونسيت آلهة قومها وأصنامهم، وتوجهت إلى الله تعالى بأشد ما يكون الاضطرار تدعوه أن يظهر براءتها ويخلصها من كربها؛ فأجابها الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، جاء الفرج أسرع مما تخيلت؛ وألطف مما قدرت! إذ بالحدأة تُلقي الوشاح عليهم، وهكذا ظهرت براءتها ، فأخذوا وشاح ابنتهم، و قالت: اتهمتموني به وها هو أمامكم، وهنا قررت الهجرة من مكة ولكن أين تذهب؟ فاتجهت صوب المدينة وأعلنت إسلامها وسكنت في خباء لها في المسجد فكانت تنشد:

وَيَوْمُ الوِشَاحِ مِنْ تَعَاجِيبِ رَبِّنَا... أَلاَ إِنَّهُ مِنْ بَلْدَةِ الْكُفْرِ أَنْجَانِي

...(الأبرص والأعمى والأقرع) عن أبي هريرة ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: إنّ ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس، فمسحه، فذهب قذره، وأعطى لونا حسنا، قال: فأي المال أحب إليك ؟ قال: الإبل أو قال: البقر شك الراوي – فأعطى ناقة عشراء فقال: بارك الله لك فيها، فأتى الأقرع، فقال:أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس، فمسحه فذهب عنه، وأعطى شعرا حسنا، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر، فأعطي بقرة حاملا، قال: بارك الله لك فيها. فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلى بصري فأبصر الناس، فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب اليك؟

قال: الغنم، فأعطى شاة والدا، فأنتج هذان وولد هذا، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد الغنم، ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسالك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة، فقال: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس؟ فقيرا فأعطاك الله؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر، فقال إن كنت كاذبا فصيّرك الله إلى ما كنت. وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد هذا، فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة، أتبلغ بها في سفري فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري، فخذ ما شئت ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عزّ وجّل ، فقال أمسك مالك، فإنما ابتليتم ، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك. " متفق عليه (البخاري ومسلم)

... (فتح المدائن)... وفي فتح المدائن سخر الله نهر دجلة ليعبُر عليه المسلمون بخيولهم...فبعد انتصار القادسية العظيم –كما يقول ابن كثير في البداية والنهاية – دخل سعد بن أبي وقاص (نهر شير) ولكنه لم يجد فيها أحداً ولا شيئاً مما يُغنم، بل قد تحول الفرس إلى المدائن وركبوا السفن، وضمُّوا السفن إليهم، ولم يجد سعد ﵁ شيئا من السفن (لعبور نهر دجلة)، وأخبر سعد بأن كسرى يزدجرد عازم على أخذ الأموال والأمتعة من المدائن، وإنك إن لم تدركه قبل ثلاث فات عليك وتفارط الأمر.

فخطب سعد المسلمين على شاطئ دجلة فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تَخلُصون (تَصلُون) إليهم معه، وهم يخلُصون إليكم إذا شاؤوا فيناوشونكم في سفنهم، وإني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم، فقالوا جميعاً: عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل، فندب سعد الناس إلى العبور... وقد أمر المسلمين عند دخول الماء أن يقولوا: " نستعين بالله ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم "، ثم اقتحم بفرسه دجلة واقتحم الناس، ولم يتخلف عنه أحد، فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض حتى ملؤوا ما بين الجانبين، فلا يُرى وجه الماء من الفرسان والرجَّالة، وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض، وذلك لما حصل لهم من الطمأنينة والأمن، والوثوق بأمر الله ووعده ونصره وتأييده..ولم يُعدم للمسلمين شيء من أمتعتهم غير قدح من خشب لرجل يقال له مالك بن

عامر، فدعا صاحبه الله عز وجل وقال: اللهم لا تجعلني من بينهم يذهب متاعي، فرده الموج إلى الجانب الذي يقصدونه، فأخذه الناس ثم ردوه على صاحبه بعينه. وعندما رآهم الفرس يطفون على وجه الماء قالوا: ديواناً ديواناً، أي: مجانين مجانين. ثم قالوا: والله ما تقاتلون إنسًا، بل تقاتلون جنًّا. وخرج المسلمون من النهر ولم يغرق منهم أحد، ولم يفقدوا شيئًا، ودخلوا المدائن ولم يجدوا بها أحدًا[1].

(قصة سفينة) ...أخرج الحاكم عن مُحَّد بن المنكدر أن (سفينة) ﷺ – مولى رسول الله ﷺ – قال: ركبتُ البحر فانكسرتْ سفينتي التي كنتُ فيها، فركبتُ لوحًا من ألواحها فطرحني اللوح في أَجَمَة[2] (شجر كثيف) فيها الأسد، فأقبل إليَّ يُريدني، فقلتُ يا أبا الحارث: أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ، فطأطأ رأسه، وأقبل إليَّ، فدفعني بمنكبه حتى أخرجني من الأجمة ووضعني على الطريق، وهمْهمَ، فظننتُ أنه يودعني، فكان ذلك آخر عهدي به[3].

(1) البداية والنهاية لابن كثير 7/70-72 باختصار.

(2) أجمة: شجر كثير ملتف (غابة).

(3) إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة للبوصيري رقم (6848)، ومعرفة الصحابة لأبي نُعيم، برقم (3102)، ودلائل النبوة للبيهقي، برقم (2293).